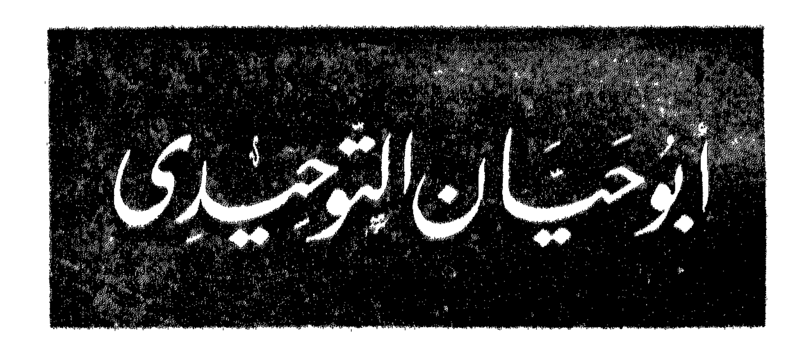
قادة الفكر في الشرق والغرب

« ٤ »

الجزء الأول



الدكتور
أحمد محمد الحوفي



قادة الفكر في الشرق والغرب

« ٤ »

أبو حيان التوحيدي

الجزء الأول

تأليف

الدكتور

أحمد محمد الحوفي

أستاذ تاريخ الأدب المساعد

بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

١٨ شارع كامل صدقي



مقدّمة

أحمدك اللهم ، وبك أستعين .

وبعد

١ — فقد اتصلت بأبى حيان التوحيدى عن بعد ، حينما قرأت على تَعَجُّل بعض موضوعات من كتابه (المقابسات) ، ثم بضعة موضوعات من كتابه (الهوامل والشوامل) ، ولكن هذا الاتصال العاجل أوحى إلىَّ بإكبار علمه والإعجاب بفنه .

ثم اتصلت به عن قرب قريب ، وعشت معه مدة من الزمن ، حينما شرعت أكتب هذه الدراسة ، فعَظُمَ إكبارى لعلمه ، وإعجابى بفنه .

وأيقنت أن الرجل مغبون القَدْر ، مهضوم المكانة . وأيقنت أنه أجدر بالدراسة والتقدير من أرباب الصناعة اللفظية الذين ذاعت شهرتهم فى حياتهم ، وبعد مماتهم ، وما زالوا يُدَرَّسون إلى اليوم على أنهم زعماء مدرسة ، أو أصحاب طريقة فى الكتابة ، كابن العميد وابن عباد والقاضى الفاضل ولسان الدين ابن الخطيب .

والحق أن أبا حيان يَفْضُل هؤلاء جميعا ، ويَفْضُل أضرابهم من كتاب الزخرف والزينة ، كبديع الزمان الهمذانى والحريرى .

نعم ، يَفْضُلهم بعدة مزايا ، سنعرض لها فى الجزء الثانى من الكتاب ، حين نوازن بينه وبين كتاب عصره .

وحَسْبُه أنه كاتب يَحْفِل بالفكرة وبالعبارة معا ، وأنه يستلهم مشاعره

وعواطفه ، كما يعتمد على التأنق والافتنان ، وأنه قد جال بقلمه الفنى فى ميدان العلم والمعرفة ، فطوّع النثر للترجمة عن الثقافة فى تعبير من الأدب الرفيع ، وبهذا أكمل ما بدأه الجاحظ من قبل .

أما هؤلاء فلم يكونوا كذلك ، لكنهم نالوا من الشهرة والمجد ما حُرِمَه أبو حيان ، لأن بعضهم كانوا وزراء ، وكان لهم من نفوذهم السياسى ما أضفى عليهم هالة من المجد ، وأضاف إلى أدبهم تقديرا لا يستحقه ، ولأن الذوق الأدبى قد ضعف وانحرف منذ القرن الرابع ، فصار الأدب الرفيع هو المثقَل بالصناعة والزينة ، وإن كان خِلْواً من العاطفة ، فقيرا فى الفكرة ، تافه الموضوع .

وكان هذا من أسباب غبن أبى حيان ، وحرمانه المكانة التى تبوأها أستاذه الجاحظ من قبل .

ولو أن عصره أنصفه ، أو لو أن العصور اللاحقة أنصفته ، لكان مكانه الآن فى الصدارة من كتاب العربية الأفذاذ ، ولاحتل منزلة عالية فى تاريخنا الأدبى على مَرّ الزمن .

وإنه ليسعدنى أن أساهم اليوم فى إنصاف أبى حيان ، وفى التنويه بعلمه وأدبه ، وفى بيان ما له وما عليه .

٢ — ولم يكن بُدّ فى هذه الدراسة من إلمامة بالمؤثرات فى أدبه وفى حياته وفى مكانته ، قبل دراسة أدبه نفسه .

لهذا تحدثت عن عصره السياسى والعلمى والأدبى ، وتحدثت عن معالم حياته ، وأخلاقه ، وثقافته ، وصلاته بوزراء عصره ، وبؤسه ، وتدينه ، وتصوفه ، وأمانته فى النقل والرواية ، واتهامه بالزندقة وبالوضع ، وإحراقه كتبه .

ثم عرضت لمؤلفاته كلها ، وحللت منها ما سَلِمَ من عوادى الدهر ، وذكرت من كل كتاب نماذج .

ثم درست فى تفصيل خصائصه الفكرية والفنية ، ورأيت أن هذه الخصائص لا تتكشف على حقيقتها إلا بالموازنة المنصفة بينه وبين كتاب عصره .

وإذْ كان أبو حيان كلِفاً بالجاحظ ، وتَرَدَّدَ فى القديم والحديث أنه خليفة الجاحظ ، كان لا بد من الموازنة بينهما .

وفى نهاية الدراسة خاتمة سجلتُ فيها ما هدتنى إليه الدراسة من جديد .

٣ — وقد استقيت الحقائق من ثلاثة ينابيع :

الينبوع الأول مؤلفات أبى حيان نفسها ، لأنها ناطقة صادقة فى تصوير كثير من أحواله وأحوال عصره .

والينبوع الثانى : دراسة القرن الرابع والإلمام بأحواله السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية .

والينبوع الثالث : ما كتبه القدماء عن أبى حيان — على قلته وتحامله ، فيما عدا ما كتبه ياقوت الحموى — وما كتبه المعاصرون.

ووجدت أننا قد اختلفنا فى المنهج والنتائج والأحكام ، وقد اتفقنا .

ولست أزعم أننى — فيما خالفتُ فيه — صاحب الرأى الصائب ، لأن من المجازفة أن يدعى باحث لنفسه كل الصواب ، فإن الدراسات تكشف فى كل يوم عن جديد ، وتميط الستار عن حقائق كانت مجهولة بالأمس .

٤ — وبعد

فهذا هو الجزء الأول ، ويَعْقُبه الجزء الثاني مكملا لموضوعات الدراسة . وأرجو أن تكون دراسة موفقة نافعة ، وما التوفيق إلا من عند الله ؟

القاهرة — أحمد محمد الحوفي

في { جمادى الثانية ١٣٧٦
يناير ١٩٥٧

عصره السياسى

عاش أبو حيان فى القرن الرابع الهجرى ، إذ تصدّع جلال الخلافة وجمالها ، وإذ تفككت عُراها ، وتشتت شملها ، وصارت وحدة الإمبراطورية الإسلامية إلى فرقة ، وجمعها إلى شتات ، وقوتها إلى ضعف .

وفى هذه الأبيات التى ذكرها أبو حيان عن عَلَوِىّ بالكوفة ما يشعر بالخطر الداهم الذى غفل عنه العباسيون أو تغافلوا :

أرى نارا تُشَبُّ على يَفَاع لها فى كل ناحية شُعاع
وقد رقدت بنو العباس عنها ونامت وهى آمنةٌ رِتاع
كما رقدت أُمَيَّةُ ثم هبت لتدفع حين ليس لها دفاع

وهذه الأبيات نظيرة أبيات لنصر بن سَيَّار ، أرسلها إلى مروان حين جاشت خراسان بالمسوِّدة :

أرى تحت الرماد وميض نار فيوشك أن يكون له ضِرام
فإن النار بالعودين تُذْكَى وإن الشر مبدؤه الكلام
فقلت من التعجب : ليت شعرى أأيقاظ أمية أم نيام؟
فإن يك أصبحوا وثووا نياما فقُلْ : قوموا فقد حان القيام[1]

١ — كان الضعف السياسى ، ونفوذ الخليفة العباسى ، قد بدأ يستعلن ويشيع منذ تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢ هـ فمنذ تولى قرب الترك إليه وآثرهم على

---

(١) البصائر والذخائر ١٢٩

الفرس ، وكان سنيا غاليا فى مذهبه ، مبغضا للشيعة ، ومعلوم أن أكثر الفرس شيعة .

ولم يكن يدور بخلده أن خدمه الأتراك الذين ناصرهم على الفرس هم الذين يطيحون به ، وهم الذين يسلبون سلطانه ، ولن يجد من الفرس من يؤازره أو يدفع عنه . وانتهى بهم الأمر إلى أن تآمروا مع ابنه المنتصر على قتله ، وقتلوه . سنة ٢٤٧ هـ[1] .

ومنذ ذلك الوقت اشتد شرهم ، وعظم بلاؤهم ، وصار من المألوف أن يستعين القواد الترك بالابن على أبيه ، وبالأخ على أخيه ، فاستكثر الخلفاء وأولياء عهودهم من هؤلاء الأتراك ، ليتعززوا بهم ، وليتخذوهم عيونا لهم ، حتى شَرِقَتْ بهم بغداد .

لكنهم لم يكونوا إلا معاول للتخريب ، والتلاعب بسادتهم ؛ لأنهم منذ قتلوا المتوكل صار الخلفاء بأيديهم كالأسرى ، إن شاءوا أحيوهم ، وإن أرادوا خلعوهم ، وإن رغبوا قتلوهم[2] .

وصار بقاء الخليفة فى منصبه رهنا بإرادتهم وحدهم ، وتعالم الناس ذلك ، وتندّروا به ، فإنه لما تولى المعتز أحضر أصدقاؤه المنجمين وسألوهم : كم يبقى فى الخلافة ؟ وكم يعيش ؟ فقال أحد الظرفاء — وكان بالمجلس — : أنا أَعْرَفُ من هؤلاء بمقدار خلافته وعمره . قالوا : فكم تقول ؟ قال : ما أراد الأتراك بقاءه بقى . فضحك كل من كانوا بالمجلس[3] .

٣ — فى ذلك القرن كان نفوذ الأجناد من الترك قد ازداد قوة ، وكانت

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ٢١٥

(٢) ، (٣) الفخرى فى الآداب السلطانية ٢٢٠

سلطة الخلفاء قد تفاقم ضعفها ، ونظر الولاة إلى ضعف الخلفاء ، واستبداد الترك بشئون الحكم والسياسة ، فطمعوا فى الاستقلال بما تحت أيديهم من ولايات .

وقد تجلت الحركات الانفصالية منذ عهد الخليفة الراضى بالله ، فهو آخر خليفة انفرد بالحكم ، وهو أول خليفة انفلت السلطان من يده .

ففى السنة الأولى من ولايته (٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م) عظم أمر مرداويج بأصفهان ، وقيل إنه كان يريد أن يستولى على بغداد ، وينقل الدولة إلى الفرس ، ويمحو دولة العرب ، لكن غلمانه قتلوه .

وفى أيامه سلبه الأتراك السلطة كلها ، واستولى الأعاجم وأرباب السيف والأمراء على الدولة ، وجبوا الأموال ، وكفوا يد الخليفة ، وقدروا له يسيرا من المال[1]

وفى عهده تمزقت الخلافة إلى دويلات :

فاستولى ابن رائق على البصرة وواسط .

واستبد البريدى بالأهواز .

واستقل بنو بويه بفارس والرى والجبل وأصفهان من (٣٢٠ إلى ٤٤٧ هـ).

وانفرد الديلم بطبرستان وجرجان وكرمان .

وقامت الدولة السامانية فى خراسان وما وراء النهر من (٢٦١ إلى ٣٨٩) .

ثم خلفتها الغزنوية بالهند وأفغانستان (٣٥١—٥٨٢) . وأقام بنو حمدان ملكهم فى الموصل وديار بكر ومضر وربيعة (من ٣١٧ إلى ٣٩٤) .

---

(١) الفخرى ٢٥٤

واستقل الإخشيديون بمصر والشام (٣٢٣ – ٣٥٧) ثم خلفهم الفاطميون .

وصارت اليمامة والبحرين بيد القرامطة .

وظهر الفاطميون بالمغرب وإفريقية سنة ٢٦٧ ثم بمصر والشام من ٣٥٧ إلى ٥٦٧ هـ .

واستقل عبد الرحمن الناصر بالأندلس .

وإذاً فلم يبق للخليفة العباسى إلا بغداد وملحقاتها[1] .

والذى يلاحظ أن هؤلاء المنفصلين ليسوا من جنس واحد ، فالسامانيون والبويهيون من الفرس ، والإخشيديون والغزنويون من الترك ، والحمدانيون والفاطميون والأمويون من العرب .

٣ — ولربما كانت النكبة أخف وطأة لو أن هذه الدويلات المنفصلة كانت على وفاق فيما بينها وإيثار للسلام ، ولو أنها كانت تتآخى وتتعاون على صد المغير من الروم . لكن النكبة كانت مضاعفة ، لأن بأس الحكام كان بينهم شديدا ، قويهم يطمع فى ضعيفهم ، وضعيفهم يحقد على قويهم ، وذو البأس يتطلع إلى إضعاف ذى البأس .

٤ — ولم يكن الأمن فى الداخل مستقرا ، ولم تكن الثورات تهدأ ، فابن رائق يستولى على البصرة ، ثم على دمشق . والبريدى يستولى على خوزستان ثم على بغداد . والمرزبان بن بختيار يثور بالبصرة ، وابن بقية يثور بواسط ٣٦٤ هـ[2] .

والبويهيون يزحفون على بغداد سنة ٣٤٤ هـ .

---

(١) تجارب الأمم لمسكويه ٥/٥٠٢ والكامل لابن الأثير ٨/٢٤١ وتاريخ أبى الفدا ٢/٣٩٨ والفخرى ٢٥٢

(٢) تجارب الأمم ٦/٣٤٤

. والأتراك والديلم يتربص بعضهم ببعض ، ويكيد بعضهم لبعض ، وأحيانا يتحاربون فى دار الخلافة نفسها ، فينقسم سكانها ويحارب بعضهم بعضا . حدث هذا فى الفتنة التى نشبت سنة ٣٦٣ هـ . إذ انضم السنية إلى سبكتكين التركى ، وانضم الشيعة إلى بختيار الديلمى ، واستضاموا الشيعة ، وناصبوهم الحرب ، فتحصن الشيعة فى أرباض الكرخ ، ولكن الحرب استمرت ، وسفكت فيها الدماء ، واستبيحت المحارم ، وأحرق الكرخ مرة ثانية بعد حريقه الأول ، فافتقر التجار ، وغلبهم العيّارون على أموالهم وبضائعهم وحُرَمهم ومنازلهم ، وانتثر النظام ، وعجزت الحكومة . وصارت العصبية بين السنية والشيعة دائرة على أمور الدين والدنيا معا ، بعد أن كانت من قبل مقصورة على الدين وحده(١) .

وفى هذا القرن عاث القرامطة فسادا بالعراق والشام ، وعبثوا بالحجاز ، وحذا حذوهم الخوارج ودعاة الفتنة والثوارت .

وثار العيارون فى بغداد ثورات عدة ، لينالوا ما يحفظ حياتهم ، وكان أبو حيان من ضحايا ثورتهم سنة ٣٦٣ ، إذ ثاروا ثورة عاتية ، وجعلوا يحرقون ويدمرون وينهبون ، فامتدت أيديهم إلى الحى الذى يسكن فيه أبو حيان ، فنهبوا من منزله كل ما وجدوه من ذهب وملابس وأثاث ، وقضت جاريته من الخوف(٢) .

٥ — ولم يَسْلم الخلفاء أنفسهم من الاعتداء على حياتهم ، فكثيرا ما خُلعوا وحُبسوا ، وكثيرا ما قتلوا شر قتلة .

فالأتراك هم الذين دبروا مع المنتصر مقتل أبيه المتوكل ، وأكبر أمرائه الفتح

---

(١) تجارب الأمم ٦/٣٢٨ (٢) الإمتاع والمؤانسة ٣/١٥١

ابن خاقان ، وولوه مكانه سنة ٢٤٧ هـ[1] . وهم الذين خلعوا المستعين بـ
سنة ٢٥٢[2] ، وقتلوا المعتز بعد أن ضربوه ، وأقاموه فى الشمس ، فـكـ
رجلا ويضع أخرى من شـــدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه ، وهو يتقو
سنة ٢٥٥ هـ[3].

وخلعوا المهتدى وأسروه حتى مات سنة ٢٥٦ هـ[4] وقتلوا المقتدر قت
ورموا جثته سنة ٣٢٠ هـ[5] وخلعوا القاهر ،وسملوا عينيه، وحبسوه سنة ٣
وسملوا عينى المتقى لله وخلعوه سنة ٣٣٣ هـ[7] .

فلما استولى البويهيون على بغداد تلاعبوا بالخلفاء كما كان يتلاعب الأ

فقد كان الخليفة حينما هجموا على بغداد هو المستـكفى بالله ، فلما
معز الدولة البويهى وصل بغداد خاف واضطرب ، وأرسل هدايا إلى معز
ثم قابله معز الدولة ، فأعطاه الخليفة الطوق والسوار وآلة السلطنة ، وعقد ل
وهو الذى لقبه بمعز الدولة ، ولقب أخاه عماد الدولة .

لـكن معز الدولة دبّر نـكاية بالخليفة بعد ذلك بقليل ، إذ خلعه ، وسمل
واعتقله حتى توفى سنة ٣٣٨ هـ[8]. وتولى بعده المطيع لله سنة ٣٣٤ هـ ، ؛
فأشار عليه سبكتـكين حاجب معز الدولة البويهى أن يتنحى عن الخلافة
ولده الطائع ، فقتل سنة ٣٦٣ هـ[9] .

وقضى الطائع بمنصبه الاسمى ثمانية عشر عاما ، وكان كسابقيه من

---

(١) الفخرى ٢١٥ (٢) الفخرى ٢١٩ (٣) الفخرى
(٤) الفخرى ٢٢٣ (٥) الفخرى ٢٣٩ (٦) الفخرى ١
(٧) الفخرى ٢٥٦ (٨) الفخرى ٢٥٨ (٩) الفخرى ١

سليب الحول والطول ، ألعوبة فى يد آل بويه ، وانتهى أمره بأن قبض عليه بهاء الدولة البويهى وخلعه سنة ٣٨١ هـ[١] .

وخلفه ابن عمه القادر بالله ، وتزوج بنت بهاء الدولة البويهى ، وفى عهده ظهرت دويلات كثيرة بالشرق والغرب ، وبقى فى الخلافة إلى أن مات سنة ٤٢٢ هـ[٢] .

٦ — ولا شك فى أن خلفاء بنى العباس فى القرن الرابع كانوا رموزاً فحسب، بل كانوا رموزا لا مهابة لها ولا جلال ، فهم رموز للمنصب الدينى ، لكنهم محرومون التوقير والإجلال .

وكان الأمر كله بيد المتغلبين والحاكمين ، يُصَرِّفونه كما يشاءون ، غير مقيدين برعاية المصالح وتوخى العدالة ، لذا تفشى الخراب والفساد .

وانصرف الخلفاء منذ المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) عن الملك والسياسة ، واستسلموا للشهوات ، وأسلموا مقاليد شئونهم لنساء القصر وغلمانه .

يقول موير : « قد جرَّ حكم هذا الخليفة البائس الطويل الخلافة إلى أحط الدركات . وكان الخليفة فى بغداد ألعوبة فى أيدى الحرس الأجانب ، وكانت النساء لها الكلمة العليا فى شـــئون الدولة . وأصبح العرش موضع سخرية فى الداخل ، وهدفا لطمع المغيرين من الخارج . ولم تعد بغداد المدينة القادرة على صد هجمات المغيرين ، بل تدهورت الأخلاق فيها ، ولعبت الدسائس والاضطرابات دورا خطيرا »[٣] .

ولم يبق للخليفة إلا منصبه الاسمى الرسمى ، فحكام الأقاليم — ما عدا

---

(١) الفخرى ٢٦٠ (٢) الفخرى ٢٦٠

(٣) الدولة العباسية ١٩٥ حسن خليفة

الفاطميين — يذعنون له بالسلطة الدينية ، ويبعثون إليه الهدايا ، ويخطبون على المنابر باسمه ، ويدعون له .

ثم لما تلقب الفاطميون بالخلفاء منذ فتحوا القيروان سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩ م) لقب عبد الرحمن الناصر فى الأندلس نفسه بالخليفة ، وتسمى بأمير المؤمنين سنة ٣٥٠ هـ[١] (٩٦١ م) .

٧ — كان من الطبيعى أن يجرىء هذا الضعف المستسلم خصوم الدولة على الطمع فيها ، واقتطاع بعض أرجائها ، وما الذى يمنع الروم من الهجوم على مُلك متفرق الكلمة ، مبعثر القوة ، مستباح لكل طامح أو طامع ؟

أغار الروم على أطراف الدولة غارات عدة: أغاروا عليها سنة ٣٠٣ و٣١٤ و٣١٥ . واستولوا سنة ٣١٤ (٩٢٦) على مدينة ملطية[٢] ، ثم فى عام ٣٣١ هـ على ديار بكر ، واقتربوا من نصيبين ، وظهروا على المسلمين ، وشغل حكام المسلمين بولاياتهم الخاصة ، كما فعل ملوك الطوائف بعد موت الإسكندر ، وأخذت دعائم الإسلام تتداعى سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣) فى خلافة أبى إسحاق ابراهيم المتقى لله[٣] .

ثم استمرأ الروم ضعف المسلمين ، فاستولوا على جزيرة كريت سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١) ، واستولوا على جزيرة قبرص سنة ٣٥٥ ، وفيما بين ذلك فتحوا طرطوس ، ثم فتحوا حماة وحمص وأنطاكية سنة ٣٥٧ ، وبعد ذلك أغاروا على الرها ودخلوا ديار بكر سنة ٣٦٢ وقتلوا وسبوا وخربوا وانتهكوا الحرمات .

---

(١) أبو الفداء جـ ٣

(٢) تجارب الأمم لمسكويه ٥/ ٢٤٩

(٣) مروج الذهب المسعودى ٢ / ٧٣

وفى عام ٣٦٤ (٩٧٤) فتحوا بعلبك وبيروت ، فافتدى أهل دمشق أنفسهم بغرامة يدفعونها للروم فى كل عام[١] .

٨ — على أن هذا الانكماش فى غرب المملكة الإسلامية كان يقابله فى بعض الأحيان توسع فى شرقها . فقد فتحت بلوخستان سنة ٣١٣ هـ (٩٢٥) ، وأسلم من الترك مئات الألوف[٢] .

ثم أوغل محمود بن سبكتكين فى فتوحه بالهند .

---

(١) الكامل لابن الأثير ٨/٤٥٤ وتجارب الأمم ٦/٣٨٦ والنجوم الزاهرة ٢/٤٣٥ .
(٢) تجارب الأمم ٦/٢٤٠ ، ٢٤٩

عصره العلمى والأدبى

- ١ -

من الحقائق المقررة فى تتبع الحركات العلمية والأدبية أنها لاتتمشى مع العصور السياسية مشى التلازم المحض ، فتطفر مع السياسة وتهبط بهبوطها ، لأن السياسة حركة قد تجىء مفاجئة ، وقد تجىء على مهل وتدبير . أما الحركة العلمية والأدبية فلابد لها من تمهيد طويل ، ولابد لانقطاعها أو ضعفها من مهلة زمنية تطول أو تقصر .

ومن هنا ضعفت الدولة سياسياً كما رأينـا ، لـكن النشاط العلمى والأدبى دأب فى طريقه إلى غرضه .

ولذلك أسباب ، أهمها أن التيار الذى كان قويا مندفعاً فى القرن الثالث ما زال على قوته واندفاعه فى القرن الرابع ، ولم يتأثر فجأة بالعوامل السياسية . ثم إن الملوك والأمراء الذين صاروا قائمين بشئون الحـكم والسياسة وجدوا الخير لهم فى تقريب العلماء ، وتشجيع الأدباء ، سواء أكانوا يبتغون من ذلك محاكاة خلفاء بنى العباس الأولين ، أم يريدون أن يُضْـفُـوا على ملـكهم هالة من الأبهة والمجد وحسن الأحدوثة ، أم يطمحون إلى أن يمدحهم الأدباء ليسير ذكرهم فى الناس ، أم يتخذون من العلماء والأدباء أعوانا لهم فى شئون الملك والسياسة .

وقد نجم عن ذلك أن صارت العواصم تزخر بالـكبار من رجال العلم والأدب ، وأن صارت تتنافس بغداد وحلب وقرطبة والقاهرة وأصفهان وشيراز وهمذان ونيسابور وسمرقند والرّى .

— ٢ —

وهذه عجالة تبين مدى تشجيع الولايات للعلم والأدب .

١ — اشتهر آل بويه بالعلم والأدب ، فكان عز الدولة بن المعز شاعرا ، وكان عضد الدولة وابنه تاج الدولة أديبين ، وكذلك كان أبو العباس بن ركن الدولة ، على أن عضد الدولة كان نابغاً فى عدة علوم .

لذلك ظهر ميلهم فى اختيارهم وزراءهم والمقربين إليهم ، فكان أكثر وزرائهم كتابا أو شعراء أو علماء ، فمعز الدولة استوزر الحسن المهلبي ، وركن الدولة استوزر ابن العميد ، ومؤيد الدولة وأخوه فخر الدولة استوزرا ابن عباد .

وكان نشاطهم فى تشجيع العلماء والأدباء محمودا ، فإن عضد الدولة كان يغمرهم بعطاياه ، وكان مجلسه حاليا بالمباحثات والمناقشات ، وهو الذى ألف له أبو على الفارسى كتاب (الإيضاح والتكملة فى النحو) وألف له أبو إسحاق الصابى كتاب (التاجى) فى تاريخ آل بويه ، ورحل إليه المتنبي ، ونال عطاءه الجزل[1] .

٢ — وكان الغزنويون مشغولين بالفتح ، لكن حروبهم لم تصرفهم عن مناصرة العلم والأدب ، ولم تشغل السلطان محمودا عن اجتذاب الأدباء والعلماء إلى حاضرة ملكه ، فهو الذى كتب إلى أمير خوارزم يقول له : علمت أن فى مجلسك جماعة من العلماء المبرزين ، فأرسلهم إلى ليتشرفوا بمجلسى ، ونستفيد من علمهم » . وهو الذى أشار على الفردوسى أن يتم الشاهنامة التى بدأها الدقيقى باقتراح نوح بن منصور السامانى .

٣ — أما بنو حمدان بالموصل وحلب فقد كانوا عربا خُلَّصا ، وكانوا شعراء أو أدباء .

(١) يتيمة الدهر للثعالبي الجزء الثانى .

وحسبنا أن نعلم أن سيف الدولة كان أمل الأدباء والعلماء في عصره ، وقد ازدان قصره بالمتنبي (قضى عنده تسع سنوات) وأبي فراس ابن عمه ، والسرى الرّفاء ، وأبي العباس النامى ، وأبي الفرج الببغاء ، وابن نباتة السعدى ، وأبي الفرج الأصفهانى ، وعبد الرحيم بن نباتة ، والفارابى وابن خالويه[١] .

٤ — وأما الفاطميون فقد استقروا بالقاهرة ، واتخذوها عاصمة لدولتهم الكبيرة ، وجعلوا ينافسون بغداد في مظاهر الخلافة والأبهة ، وفى الحفاوة بالعلماء والأدباء ، وكانت عروبتهم الخالصة مُذْكية لهذه الحفاوة .

فالمعز أنشأ الأزهر ، ليكون مثابة لعلماء الشيعة ، والعزيز أنشأ في قصره خزانة كتب ، ملأها بالمؤلفات ، وحاكاه في ذلك جمع من أهله . ثم بنى الحاكم دار الحكمة ، واستكثر فيها من الكتب ، وتأنق في تأسيسها وزخرفتها ، ووقف عليها أملاكا تُغِل علبها ، ووظف لها مشرفين ينظمون طرائق الانتفاع بها ، وأباح للمترددين عليها أن يعقدوا مناظرات فيها ، وأعد بها أقلاما وأوراقا ومحابر للذين ينقلون من كتبها . وهو الذى أنشأ المرصد الحاكى على جبل المقطم .

وكان كثير من الخلفاء الفاطميين وأمرائهم أدباء ، يتذوقون القول الرائع ، ويكافئون عليه بالعطاء الجزل .

— ٣ —

وتم في القرن الرابع نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية .

ومن أشهر النقلة :

أبو بشر متى بن يونس القُنّائى (المتوفى سنة ٣٢٨ هـ)[٢] .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي الجزء الأول (٢) طبقات الأطباء ٢/٢٣٥

وأبو زكريا يحيى بن عدى المنطق (المتوفى حول سنة ٣٦٤ هـ)[1] .

وأبو على إسحاق بن زُرْعة (المتوفى سنة ٤٤٨ هـ)[2] .

وأبو الخير بن الحسن بن الخمار (ولد سنة ٣٣١ هـ)[3] .

وهو من تلاميذ يحيى بن عدى .

وقد اتصل أبو حيان التوحيدى بهؤلاء وبغيرهم .

وتلقف العلماء والأدباء الثروة العظيمة التى خلفها لهم سابقوهم من علوم لغوية وشرعية ومترجمة ، وكان عصرهم باعثا لهم على الانتفاع بما خلفه أسلافهم ، وعلى الابتكار والتجديد .

ومن هنا تبين فى الحركة العلمية والأدبية عدة ظواهر :

١ — استكملت العلوم أسباب النضج والنماء ، وظهر ذلك جليا فى المعاجم اللغوية ، والفلسفة ، والطب ، والطبيعيات ، والتاريخ ، وتقويم البلدان ، والسياسة والاقتصاد ، والنحو ، والبلاغة ، سواء فيما دونوه أو فيما نقلوه من اليونان والفرس والهنود .

٢ — انتهى تطور النثر الفنى إلى أسلوب خاص ، إذ امتاز أكثر كتابه بافتنانهم فى التعبير ، وجنوحهم إلى الصناعة والسجع ، واحتفالهم باللفظ ، وميلهم إلى التطويل ، وإكثارهم من عبارات التفخيم والتعظيم والتهويل ، وتقسيمهم العبارة إلى جمل قصار أو طوال بينها اتزان وانسجام ، وإيثارهم للخيال الشعرى ، واقتباسهم من الشعر واستشهادهم به .

٣ — ظهرت القصص والمقامات .

٤ — كثرت المكتبات الخاصة والعامة .

٥ — ازدهر المذهب الشيعى، لأن آل بويه فى الشرق شيعة ، ولأن الفاطميين فى مصر أشد منهم تشيعا .

٦ — شاعت فى العالم الإسلامى مذاهب شتى فى القرن الرابع ، وتزاحمت فى البلد الواحد ، واشتد بينها الصراع . ففى بغداد نِحَلٌ شتى تجتمع لتتناحر .

وفى العراق والأهواز وفارس وأصبهان وخراسان مجوس من أتباع زرادشت ، يعبدون النار .

وفى البصرة قَدَرية وشيعة وحنابلة .

وفى مصر سنية وشيعة .

وفى خوزستان معتزلة .

وفى كل إقليم شيعة وحنابلة وشافعية .

وكثيرا ما تحدث الفتنة فى بغداد وغيرها بين الحنابلة والشافعية ، أو بين الشيعة والسنية ، فيتقاتلون بالسيف ، ويكاد يفنى بعضهم بعضا .

لهذا نسمع كثيرا عن تَقِيّة بعض العلماء ومداراتهم وإخفائهم حقيقة مذهبهم ، صيانة لأرواحهم من عدوان العامة أو تنكيل الحكام ، وكانت تقيتهم هذه سببا فى نشأة الجماعات السرية من أرباب التفكير والفلسفة .

٧ — ويظهر أن قيام دول غير عربية قد أرضى الأعاجم ، وذهب ببعض تحاملهم على العرب ، فخفت حدة الشعوبية ، بعد أن صارت بعض الأقاليم خاضعة لبنى بويه ، وبعد أن قوى نفوذ القرامطة فى العراق والحجاز والشام ، وبعد أن قامت الدولة الغزنوية الشيعية فى خراسان وما وراء النهر وشمالى الهند .

٨ — ظهرت شخصية العواصم والمدن واضحة فى نسبة علمائها وأدبائها

إليها ، كالأصفهانى والرازى والمروروزى والبخارى والقُمّى والنيسابورى .

وقد كان الغالب فى النسبة قبل ذلك أن تكون إلى الأصل أو إلى الصناعة كالمازنى والفراء والزجاج .

٩ — كانت اللغة العربية هى لغة الأدب والحكومة فى القرن الرابع . فأكثر الفرس يتكلمون بها ، ويؤلفون ، وينشئون . ودواوين الحكومة تصطنعها لغتها الرسمية .

والمدن الكبار مثل نيسابور وشيراز والرى وأصفهان ومرو تزخر بالثقافة العربية ، وتمتلىء بالدارسين للعربية والمؤلفين بها .

١٠ — وقد خلفت هذه العواصم المستحدثة بغداد فى أنها صارت مثابة الأدباء والعلماء . ذلك أنهم كانوا قد اعتادوا فى العصر الذهبى للدولة العباسية أن يؤموا بغداد ، ليعرضوا علمهم وأدبهم ، وينالوا ما يريدون من غُنْم مادى ومعنوى ، فصاروا فى القرن الرابع يؤمون العواصم الجديدة ، وإن كانوا من بغداد نفسها ، كما فعل أبو حيان .

١١ — اصطبغ شعر بعض الشعراء بصبغة إقليمية ، واصطبغ شعر آخرين بالفلسفة كأبى العلاء .

١٢ — وحَسْبُ القرن الرابع أن يتألق فى سمائه عشرات من كبار الكتاب ، وعشرات من العلماء والفلاسفة ، فمن الكتاب : الخوارزمى والصابى وبديع الزمان الهمذانى وابن عباد وأبو الفضل بن العميد وأبو الفتح بن العميد والشريف الرضى وأبو الفرج الأصفهانى وأبو إسحاق الصابى وأحمد بن يوسف وعلى بن العزيز الجرجانى .

ومن الفلاسفة والعلماء : ابن مسكويه والفارابى وابن سينا وابن دريد وابن الأنبارى وابن فارس والآمدى والباقلانى والرازى وابن حزم وابن شهيد وأبو أحمد العسكرى وأبو هلال العسكرى والحاتمى والمرزبانى والثعالبى .

معالم حياته

اسمه :

علي بن محمد بن العباس .

وكنيته أبو حيان ، وغلب عليه تلقيبه بالتوحيدي[1] . والسبب في هذا اللقب أن أباه كان يبيع نوعاً من التمر ببغداد اسمه التوحيد[2] . وهو الذي يريده المتنبي في قوله :

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد[3]

ويرى ابن حجر العسقلاني أن هذا اللقب يحتمل أن يكون نسبة إلى التوحيد الذي هو الدين ، لأن المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد[4] .

ولا نستطيع أن نرجح رأياً على آخر في تلقيبه بالتوحيدي ، فربما كان أبوه يبيع هذا النوع من التمر ، وربما لقبه بالتوحيدي بعض معاصريه أو لاحقيه ممن عرفوا مذهبه في التوحيد .

لكن الذي نوقن به أنه لم يعرض لهذا اللقب في كتاب من كتبه ، على كثرة ما ذكر كنيته ، ولم يشر من بعيد أو من قريب إلى نسبه أو إلى أسرته .

ولقد نرجع هذا الإغفال إلى شعوره بأن أسرته من أوساط الناس ، فلا سبيل إلى الحديث عنها ، أو الإلمام بطرف من تاريخها . ولقد نضيف إلى ذلك خشيته

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٥ (٢) تاج العروس مادة وحد

(٣) ديوان المتنبي (٤) لسان الميزان ٦/٣٦٠

من خصومه الذين لا يعرفون أصل أسرته ، والذين يعرفون أصلها . فليس من الحكمة أن يكشف عن حقيقة أسرته للذين يجهلونها ، وليس من الحكمة أن يتحدث بهذه الأسرة إلى من يعرفونها ، لأنه فى الحالين يفتح على نفسه باباً لا ينتظر من فتحه إلا الشر .

مولده :

كثيراً ما نجد عسراً فى الكشف عن مولد عالم أو أديب أو عظيم من القرون الخالية ؛ لأن الناس لم يكونوا يقيدون مولد أبنائهم كما نفعل الآن . ولقد يرتبط مولد الشخص بحدث جلل ، يعين زمن استهلاله على هذه الأرض .

أما وفيات هؤلاء العلماء والأدباء فقلما تجهل ، وإن حدث فيها اختلاف ؛ لأنهم كانوا قد اشتهروا ، وذاع علمهم وأدبهم فى الآفاق ، وهذا هو السر فى أن كتب التراجم تعنى بزمن الوفاة أكثر من عنايتها بزمن الميلاد .

لكننا فى تاريخنا لأبى حيان نَلْقَى عُسْرَيْن : عسراً فى تعرف مولده ، وعسراً فى تعرف وفاته ، كأنما اتفق الناس على إهماله ميتاً كما أهملوه حياً ، وكأنما أبى حظه المهضوم إلا أن يلازمه فى الحياة والموت .

وقد حار دارسوه فى تحديد ميلاده ، فاستظهر السندوبى أنه ولد سنة ٣١٢ هـ[1] معتمداً على أنه كتب رسالة إلى القاضى أبى سهل على بن محمد يعتذر فيها من إحراق كتبه ، وأرخها سنة أربعمائة ، وقال فيها : « وبعد فقد أصبحت هامة اليوم أو غد ، فإنى فى عشر التسعين ، وهل بعد الكَبْرة والعَجز أمل فى حياة لذيذة ؟ »[2] لكن هذا الاستنباط لا يستند إلى قوة ، فمن الجائز أن يكون قد ولد قبل ذلك أو بعد ذلك .

---

(١) مقدمة المقابسات ٨ (٢) معجم الأدباء ١٥ / ٢٠

وأعفى الدكتور زكى مبارك نفسه من معرفة ذلك التاريخ « لا تسألنى متى وُلد ، ولا أين وُلد ، فذلك رجل نشأ فى بيئة خاملة لم تكن تطمع فى مجد ، حتى تُقيد تاريخ ميلاده »[1] .

وإذا كنا نوافقه على الإقرار بالعجز فإنا نخالفه فى التعليل ، لأن إغفال أسرته لتاريخ ميلاده ليس نتيجة للخمول ، وإنما هو سنة غالبة على العصور القديمة كلها .

وفاته :

ولعل المؤرخين لم يختلفوا فى وفاة عالم أو أديب كما اختلفوا فى وفاة أبى حيان ، وإنه لخلاف جسيم ، يرجع بوفاته إلى سنة ٣٦٠ هـ أو يمتد بها إلى ٤١٤ هـ . فأى خلاف ذلك الذى يفصل بين زمنيه أكثر من نصف قرن ؟

أما وفاته سنة ٣٦٠ هـ فتعتمد على ماذكره أبو العباس أحمد بن أبى الخير زركوب الشيرازى فى كتابه (شيراز نامه) من أنه سمع أباه يقول إنه رأى مقبرة أبى حيان مكتوباً عليها أنه توفى سنة ٣٦٠ هـ[2] .

وقد ذهب السيوطى إلى أنه توفى سنة ٣٨٠ هـ[3] .

وكلا الرأيين مجانب للصواب ، لأن أبا حيان كتب رسالة إلى القاضى أبى سهل على بن محمد فى رمضان سنة ٤٠٠ هـ[4] ولأن السبكى يذكر أن أباسعيد عبد الرحمن الأصبهانى سمع من أبى حيان بشيراز سنة ٤٠٠[5] ، ولأن أبا حيان نفسه ذكر فى رسالة الصداقة والصديق أنه بيض مسوّداتها فى رجب سنة ٤٠٠ هـ[6]

(١) النثر الفنى فى القرن الرابع ٢/١٣٣
(٢) شيراز نامه ١٠٩
(٣) بغية الوعاة ٣٤٨
(٤) معجم الأدباء ١٥/٢٦
(٥) طبقات الشافعية ٤/٢
(٦) الصداقة والصديق ٥

لهذا كان الذهبي أقرب منهما إلى الصواب فى قوله إن أبا حيان توفى سنة ٤٠٠ هـ[١] . ويظهر أن الأستاذ آدم متز أخذ برأيه ، أو استدل من كتابة أبى حيان على أنه كان حياً سنة ٤٠٠ فقال إنه توفى حوالى سنة ٤٠٠[٢] .

أما القزوينى فقد ذهب إلى أنه توفى سنة ٤١٤[٣] ، وهذا يتفق مع ماذكره المؤرخ الشيرازى أبو العباس أحمد زركوب ، فهو يذكر قبل روايته عن أبيه التى أسلفناها رواية أصح منها ، هى أن الشيخ أبا الحسن بن أحمد شيخ مشايخ عصره رأى أبا حيان فى منامه ، فسأله : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى على رغمك . وفى اليوم التالى طلب من أصحابه أن يحملوه إلى شيراز ، فزار قبر أبى حيان وصلى عليه ، وأمر بوضع لوح على قبره مكتوب عليه : هذا قبر أبى حيان التوحيدى توفى سنة ٤١٤ هـ[٤] .

وإذاً فقد كان أبو حيان على قيد الحياة سنة ٤٠٠ هـ والراجح أنه قد عاش بعدها إلى ٤١٤ هـ كما ذكر القزوينى والمؤرخ الشيرازى الشهير بزركوب .

أصله :

رأينا المؤرخين قد اختلفوا فى زمن ميلاده ، واختلفوا فى سنوات وفاته .

وهم قد اختلفوا اختلافاً بيّناً فى جنسيته .

فهو عند ياقوت شيرازى الأصل ، وقيل نيسابورى ، وقال بعض الفضلاء إنه واسطى ... قدم ببغداد فأقام بها مدة ، ومضى إلى الرّى[٥] ...

---

(١) ميزان الاعتدال ٣ /٣٥٥

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع . آدم متز ٤١٦

(٣) مقدمة الهوامل والشوامل ح

(٤) شيرازنامه ١٠٨ (ترجم هذه الفقرة صديقاى الدكتور حسين الهمدانى والدكتور محمد هنداوى) (٥) معجم الأدباء ١٥/٥

والذى نفهمه من هذا أنه فارسى الأصل صراحة .

ثم يعود ياقوت فيذكر أنه محمدة لبنى ساسان[1] ، وهذا يؤكد نسبته إلى فارس فى رأى ياقوت . ونقل السيوطى عن ياقوت أنه شيرازى أو نيسابورى[2] ويظهر أن السندوبى قد اعتمد على هذا الرأى[3] ، ثم اعتمد عليهما معاً الدكتور زكى مبارك ، فجزم بأنه فارسى[4] .

أما الأستاذ محمد كرد على فقد ذهب إلى أنه عربى ، مستدلا بأنه لم يكن يعرف الفارسية[5] .

ولكن الأدلة على عربيته أقوى من الأخذ بما ذكره ياقوت .

١ — فليس فى مؤلفات أبى حيان ما يشير إلى فارسيته من قرب أو من بعد ، ولو أنه كان يمت إلى فارس بصلة النسب لباهى بذلك فى عصر كانت الدولة فيه للفرس ، وكانت صلته بأمرائهم وحكامهم فى القرن الرابع أمله وهدفه .

٢ — وإذا ماتذكرنا كنيته واسمه واسم أبيه وجده ولقبه ، رجحنا أنه عربى صميم ، فهو أبو حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى .

٣ — على أن كتاب شيراز نامة — وهو من أدق المصـــادر فى تاريخ الفرس — ذكر أن أبا حيان بغدادى ، وفد على شيراز[6] .

٤ — ثم إن أبا حيان صرح بأنه يجهل الفارسـية ، فلو أنه كان فارسى الأصل لنشأ على معرفتها ، أو لجدّ فى تعلمها فى السنوات التى قضاها بشيراز وبالعواصم الفارسية .

ودليلنا على أنه كان يجهل الفارسية قوله إن ابن عباد سأله إذ قدم إليه :

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٥
(٢) بغية الوعاة ٣٤٨
(٣) مقدمة المقابسات ٨
(٤) النثر الفنى فى القرن الرابع ٢/١٣٣
(٥) أمراء البيان ٢/ ٤٩٢
(٦) شيراز نامه ١٠٨

أبو مَنْ ؟ فقلت : أبو حيان : فقال بلغنى أنك تتأدب . فقلت : تأدب أهل الزمان . فقال : أبو حيان ينصرف أم لا ينصرف ؟

فقلت : إن قبله مولانا لا ينصرف . فلما سمع هذا تنمر ، وكأنه لم يعجبه ، وأقبل على واحد إلى جانبه ، وقال له بالفارسية سَفَهًا على ما قيل لى »[1] وهـذا نص صريح فى أنه لم يفهم السفه الذى قاله ابن عباد ، وأنه ترجم له فيما بعد .

وله كلمة أخرى تدل على جهله بالفارسية ، فهو يروى أن أنو شروان قال فى علم النجوم : « صوابه شبيه بالحَدْس ، وخطؤه شديد على النفس » ويُعقب على ذلك بقوله : هكذا تُرْجِم ، وهو كما ترى[2] .

ويقول فى شرح كلمة آيين : إنها فارسية ، يراد بها السيرة والصورة والزى والرسم . والعرب لا تعرفها ، وإنما أقول ما سمعته أذنى ، ووعاه صدرى[3] .

٥ — وليس لنا أن نغفل تعصبه للعرب ، ورده على الشعوبية . فقد مدح العرب فى جاهليتها وإسلامها ، وأثنى على أخلاقها وطباعها ولغتها ، وعجبَ أشد العجب من الجَيْهانى إذ سبَّ العرب فى كتابه ، وتناول أعراضهم ، وحط من قدرهم . ورد على تهجمه بمثله ، فتنقص الفرس ، وسفههم ، ونال منهم[4] .

حرفته :

لم يتحدث عن حياته وأعماله إلا عرَضًا ، كذلك لم يتعرض مؤرخوه لما كان يمارس من عمل يتكسب به .

---

(١) معجم الأدباء ١٥/ ٢٨
(٢) المقابسات ١٢٣
(٣) البصائر والذخائر ٨٧
(٤) المقابسات ١ / ٧٠ — ٩٦

غير أنا نستنبط من بعض كلامه أنه كان يمارس الوراقة والنسخ ببغداد قبل أن يرحل إلى ابن عباد . ونستنبط أنه كان جميل الخط ، دقيق النقل ، خبيراً بالتصحيف والتحريف . ونعلم من كلامه أيضاً أنه كان قد مل حرفة النسخ ومل ذكرها ، وود أعظم الود ألا يعود إليها . يذكر فى كتابه مثالب الوزيرين أن الصاحب بن عباد كلفه أن ينسخ له كتاباً فتقبـل على مضض ، وقال لبعض الناس فى دار الصاحب : إنما توجهت من العراق إلى هذا الباب ، وزاحمت منتجعى هذا الربيع لأتخلص من حرفة الشؤم[1] .

وذكر هو فى حديث له « لقد استولى على الحُرْف (الحرمان) وتمكن منى نكد الزمان إلى الحد الذى لا أسترزق مع صحة نقلى ، وتقييد خطى ، وتزويق نسخى ، وسلامته من التصحيف والتحريف ، بمثل مايسترزق البليد ... وقصدت ابن عباد بأمل فسيح وصدر رحيب ، فقدم إلى رسائله فى ثلاثين مجلدة على أن أنسخها له »[2] . .

ويذكر أنه نسخ كتبا لزيد بن رفاعة ، وأن ابن سعدان سأله عن ذلك[3] .

ويذكر أن ابن سعدان استكتبه كتاب الحيوان للجاحظ ، لأنه علم عنايته به ، وتوفره على تصحيحه[4]

لكنه قد ولى عملا فى البيمارستان من قبل صديقه أبى الوفاء المهندس . ذكر ابن سعدان له أنه سأل عنه شيخه أبا الوفاء ، فعلم أنه يراعى أمر البيمارستان من جهته . وقال له : أنا أربأبك عن ذلك ، ولكنى أعرضك لشىء أنبه من هذا وأجدى . ولذلك فقد تاقت نفسى إلى حضورك للمحادثة والتأنيس ، ولأتعرف منك أشياء كثيرة مختلفة تتردد فى نفسى على مرّ الزمان[5]

---

(١) معجم الأدباء ١٥/ ٢٨ (٢) المعجم ١٥/ ١٣ (٣) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ٤

(٤) الإمتاع والمؤانسة ١/ ٥ (٥) الإمتاع والمؤانسة ١/ ١٩

ثقـــافته

كان القرن الرابع عصر النضج الثقافى والعلمى ، وكان أبو حيان مكتبة جامعة لأكثر هذه الثقافة ، فهو عالم واسع المعرفة ، متنوع الثقافة ، خبير باللغة والنحو والأدب والـكلام والتصوف والفقه والفلسفة ، وربما لم يند عنه إلا الطب والـكيمياء والرياضة .

يذكر ياقوت أن التوحيدى « شيخ فى الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقّق الـكلام ، ومتـكلم المحققين ، وإمام البلغاء ، وعمدة لبنى ساسان . . . فَرْدُ الدنيا الذى لا نظير له ذكاءً وفطنة وفصاحة ومُكْنة ، كثيرا لتحصيل للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية »[1] .

ينابيع ثقافته :

من أين استقى أبو حيان كل معارفه هذه ؟ وكيف استطاع أن يجمع أفانين من المعرفة ، ويزاوج بينها ؟

١ — لقد استقاها أولا من الـكتب التى قرأها ونسخها ، وكان كما قدمنا كثيرا ما ينسخ فى إجادة وإتقان ، واستقاها من حرفة الوراقة ، ولا شك أنها كانت تصله بالـكتب ، وكانت تتيح له أن يقرأها على تمهل ، وينقل منها مايشاء ، ويردد النظر فيها كما يهوى . وأغلب الظن أن حرفة الوراقة يسرت له أن يطلع على النادر النافع من الـكتب .

---

(١) معجم الأدباء ١٥ / ٥ .

وإذا كان الجاحظ قد اشتهر بأنه كان يكترى دكاكين الوراقين ، ويجلس فيها للنظر والقراءة ، فإن أبا حيان لم يضطر إلى ذلك ، لأنه ورّاق .

٣ — على أن أبا حيان لم يكن له عمل آخر يشغله عن البحث والدرس ومجالسة العلماء ، والتردد على مجامعهم ، والأخذ عن المشهورين منهم ·

ويطول بنا القول إذا أحصيناهم ، لأنهم كثير .

أهم ألوان ثقافته

الفلسفة :

درس الفلسفة على أبى زكريا يحيى بن عدى المنطقى سنة ٣٦١ هـ[1] · وقرأ فى بغداد على أبى سليمان المنطقى (محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى) كتاب النفس لأرسطو سنة ٣٧١ هـ[2] ، وسمع منه آراء فى الأدب ، وفيما وراء الطبيعة · وكان أبو سليمان أكبر علماء بغداد فى الفلسفة والمنطق، وكان مجلسه حافلا بالعلماء والحكماء ، وكان واسع الاطلاع على فلسفة اليونان .

وكثيرا ماينقل عنه ، ويصدر ماينقله بقوله : سألت أبا سليمان ، أو سمعت من أبى سليمان ، أو أملى علينا أبو سليمان ، أو قيل لأبى سليمان[3] ، أو أملى أبو سليمان على جماعة كنت أحدهم[4] · ويظهر أن أبا سليمان هذا كان يدرب تلاميذه على التفكير المستقل ، فإذا ما أنس منهم العجز أجابهم .

تحدث أبو حيان أنه خرج مع أبى سليمان إلى صحراء بغداد فى يوم من أيام الربيع قصدا للتفرج والمؤانسة ، ومعهم جماعة .

---

(١) المقابسات ١٥٦ (٢) المقابسات ٢٤٦

(٣) المقابسات ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٩٠ (٤) المقابسات ٢٨٦

فلما تنفس الصبح غنى صبي غناء حلوا . فقال أبو حيان لصاحب ذكى من أصحابه : لو كان لهذا الصبي من يخرجه ويعلمه ، فإنه عجيب الطبع . فقال أبو سليمان : لم احتاجت الطبيعة إلى الصناعة ؟ وقد علمنا أن الصناعة تحاكى الطبيعة وتروم اللحاق بها . . . فقلنا له : ما ندرى ، وإنها لمسألة . فقال : فكروا . فقلنا له : إنا قد عجزنا ، ولو مننت بالبيان كان ذلك محسوبا فى بيض أيا ديك ، فأجاب[1] . . .

وتتلمذ لآخرين ذكرهم فى المقابسات ، منهم أبو محمد المقدسى العروضى ، وأبو الفتح النوشجانى ، وأبو زكريا الصيمرى ، وأبو بكر القومسى ، المتفلسف كاتب نصر الدولة ، وعيسى بن على ، وابن مسكويه ، وكتابه (الهوامل والشوامل) إن هو إلا أسئلة سأل ابن مسكويه عنها ، وإجابات أرسلها إليه ابن سكويه .

وفيهم أبوالحسن العامرى وأبوالنفيس الرياضى ، وعلى بن عيسى الرمانى ، وقد أثنى عليه فى كتابه (تقريظ الجاحظ) بقوله : لم ير مثله قط بلاتقية ولا تحاش ، ولا اشمئزاز ولا استيحاش ، علما بالنحو ، وغزارة فى الكلام ، وبصرا بالمقالات ، واستخراجا للعويص ، وإيضاحا المشكل ، مع تأله وتنزه ودين ويقين وفصاحة وفقاهة وعفافة ونظافة .

وحلل شخصية كثير من العلماء الذين عرفهم .

منهم ابن زرعة وابن الخمار وابن السمح والقُومَسى ومسكويه وعيسى ابن على ، ونظيف ، ويحيى بن عدى ، وبين مذاهبهم فى النفس وبقائها أو فنائها ورأيهم فى النجوم[2] .

---

(١) المقابسات ١٦٣ (٢) الإمتاع ١ / ٣٣ — ٤٠

وكان على صلة بنقلة الفلسفة اليونانية إلى العربية فى القرن الرابع ، كأبى بشر متى بن يونس القُنَّائى ، وأبى زكريا يحيى بن عدى المنطقى[١] ، وأبى على إسحاق بن زُرْعة[٢] ، وأبى الخير ابن الحسن ابن الخمار[٣] .

كما كان وثيق الصلة بمؤلفات المناطقة والفلاسفة ، فكثيرا ما نقل عنهم ، وذكر أسماءهم فى المقابسات والإمتاع والمؤانسة . وكثيرا ما ذكر بعض مراجعه ، وذكر الكتب التى دافعت عن المنطق والفلسفة ، وبينت حاجة الفقه والدين إليها ، فذكر أن شيوخ العلم وأرباب الحكمة وفرسان الأدب فرغوا من جميع ذلك فى كتب مشهورة مثل كتاب أقسام العلوم ، وكتاب اقتصاص الفضائل ، وكتاب تسهيل سبل المعارف . فمن نظر فى هذه الكتب عرف مغازى الحكماء ومرامى العلماء[٤] .

وقال فى مقدمة المقابسات :

أشرت على بتصنيف أشياء من الفلسفة رويتها لك ، وأضفتُ أشياء أخر تجرى معها ، عن مشايخ العصر الذى أدركته ، والزمان الذى لحقتهم فيه[٥] .

---

(١) نصرانى منطق أخذ عن الفارابى وبشر بن متى وله مؤلفات عدة . توفى ٣٦٤ وكان رئيس اليعاقبة .

(٢) عالم نصرانى من علماء بغداد برز فى المنطق والفلسفة ونقل عدة مصنفات إلى العربية توفى سنة ٣٩٨

(٣) نصرانى طبيب فيلسوف نقل كثيرا من كتب السريانية إلى العربية

(٤) العلوم ٢٠٢ ملحقة بالصداقة والصديق

(٥) المقابسات ١١٧

الفقه والحديث :

ذكر السبكى[1] أنه درس الفقه الشافعى على القاضى أبى حامد المرورزى[2] ، وسمع الحديث من أبى بكر الشاشى[3] وأبى سعيد السيرانى[4] وجعفر الخلدى :

وهو فى رأى السبكى أحد المحدثين فى عصره ، روى عنه كثيرون[5] وذكره الإسنوى فى طبقات الشافعية[6] .

لكننا لا نعرف لأبى حيان مذهبا خاصا فى الفقه ، بل لا نعرف له فُتيا خاصة إلا فى مسألتين ذكرهما السبكى[7] ، إحداهما غير صحيحة كما سنرى .

الأولى أن داء الكَلَب الذى يعترى الكلاب كثيرا ، قد يعترى الجمال ، فإذا كلب الجمل نحر ولم يؤكل لحمه . والسبكى يرد على هذا بما يؤكد أن أبا حيان أعلم منه ، فيقول : وما ذكره من عدم أكل اللحم ظاهر إن كانت الأطباء صرحت بأنه مؤذ . ويرد على النحر بقوله : وأما النحر لغير مأكلة ففيه وقفة ، والذى ينبغى عموم القتل كقتل سائر المضرات ، لا خصوص النحر .

وأغلب الظن أن السبكى قرأ كلمة (بَحِر) (نُحِرَ) فتغير المعنى ، وتغير الرأى ، وكان تعليقه هذا .

---

(١) طبقات الشافعية ٤/٢

(٢) إمام من أئمة الدين ، واسع الاطلاع ، عالم بالأدب . توفى سنة ٣٦٢ هـ

(٣) فقيه محدث أصولى أديب توفى سنة ٣٦٦

(٤) نحوى أديب متكلم توفى سنة ٣٦٨

(٥) راجع طبقات الشافعية ٤/٢

(٦) بغية الوعاة ٣٤٨ (٧) طبقات الشافعية ٤ / ٢

والصواب أن أبا حيان قال إنّ الجمل إذا كَلِبَ بَخِرَ . أى نتن لحمه فلم يؤكل[١] .

المسألة الثانية التى ذكرها السبكى أن الرافعى نقل عن أبى حيان الربا فى الزعفران ، وهو عنده مسائل كثيرة عن القاضى أبى حامد المروروزى ومنها مسألة الزعفران .

على أننا لا نستطيع اليقين بأن رأى أبى حيان فى هاتين المسألتين هو رأيه واجتهاده ، أوهو رأى القاضى أبى حامد ، أوغيره من العلماء الذين خالطهم أبو حيان ونقل عنهم .

اللغة والنحو :

تنبىء كتبه عن علم واسع باللغة ، من حيث مفرداتها ، والخبرة بدقة استعمالها ، والمهارة فى تركيبها . وقد استمدها من مشافهة الأعراب فى البادية[٢] ، ومن العلماء الذين درس عليهم . وأعظمهم قدرا فى نظره أبو سعيد السيرافى ، فقد قرأ عليه شرحه لكتاب سيبويه ، وهو معجب بأبى سعيد إعجابا عظيما ، فهو يقول عنه إنه الإمام[٣] ، ويقول إنه شيخ الدهر ، وقريع العصر ، العديم المثل المفقود الشكل[٤] .

من ذلك قوله فى كتابه (تقريظ الجاحظ) : أبو سعيد السيرافى شيخ الشيوخ ، وإمام الأئمة ، معرفةً بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافى والقرآن والفرائض والحديث والكلام والحساب والهندسة . أفتى فى جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبى حنيفة فما وجد له خطأ ، ولا عُثر منه على زلة . وقضى ببغداد ، وشرح كتاب سيبويه فى ثلاثة آلاف ورقة بخطه فما جاراه

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١٦٥
(٢) البصائر والذخائر ٣/ ١٢٠
(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ١٢ ٥
(٤) معجم الأدباء ٨/ ١٥٢

فيه أحد ، ولا سبقه إلى تمامه إنسان . هذا مع الثقة والديانة والأمانة والرواية . صام أربعين سنة وأكثر الدهر كله[1] » .

وقد سأله أبو سليمان المنطق عن كلة طبيعة ، أهي فعيلة بمعنى مفعوله أم بمعنى فاعلة ؟ فكره أن يرتجل الجواب ، واستمهله حتى يسأل شيخه أبا سعيد السيرافى غدا ، لأنه عالم العالم ، وشيخ الدنيا ، ومقنع أهل الأرض . فوافقه أبو سليمان ، وطالبه بأن يتلطف فى تحصيل ما عند أبى سعيد فى هذه المسألة[2]

ودرس على علىّ بن عيسى الرّمانى ، وعلى يونس ، وقرأ ما كتبه نحاة عصره ، وعرف آراءهم .

لكنه لم يكن من علماء النحو أصحاب الآراء والمذاهب ، وإن عده السيوطى من النحاة ، وترجم له .

وكتبه ملأى بالمسائل اللغوية التى كان يذكرها حفظا ورواية .

حدث أبو حيان قال : قال الصاحب بن عباد يوما : فَعْل وأفعال قليل ، وزعم النحويون أنه ماجاء إلا : زَنْد وأزناد ، وفرخ وأفراخ ، وفرد وأفراد . فقلت له أنا أحفظ ثلاثين حرفا كلها فَعْل وأفعال . فقال : هات يا مُدّعى . فسردت الحروف ، ودَلَلتُ على مواضعها من الكتب .

ثم قلت : ليس للنحوى أن يلزم مثل هذا الحكم إلا بعد التبحر والسماع الواسع ، وليس للتقليد وجه إذا كانت الرواية شائعة والقياس مُطردا . وهذا كقولهم : فعيل على عشرة أوجه ، وقد وجدته أنا يزيد على أكثر من عشرين وجها ، وما انتهيت فى التتبع إلى أقصاه .

---

(١) معجم الأدباء ٨/ ١٥٠ والإمتاع والمؤانسة ١/ ١٢٨ — ١٢٢

(٢) المقابسات ١٠٧

فقال : خروجك من دعواك فى فضل يدلنا على قيامك فى فضيل ، ولكن لا نأذن لك فى اقتصاصك[١] ، ولا تهب آذاننا لكلامك ، ولم يفِ ما أتيت به بجرأتك فى مجلسنا، وتبسطك فى حضرتنا[٢] .

وقد خطأ الفقهاء فى قولهم عنّين بيّن العُنّة ، وذهب إلى أن الصواب هو بيّن التعنين[٣] .

والذى فى اللسان بيّن العنانة[٤] ، وفى القاموس المحيط بيّن العنانة والتعنين[٥] .

وليس فيهما (العُنّة) ، كما أن اللسان ليس فيه (التعنين) .

ومؤلفاته دالة على تبحره فى اللغة ، وإسعافها له ، يعبر بها فى ترادف أو فى تفرقة دقيقة بين المفردات .

لكنه يذكر فى شرحه المثل (ليس له أصل ولا فصل) أن الأصل الوالد ، والفصل الولد[٦] .

وهذا يخالف ما فى لسان العرب وهو « قولهم لا أصل له ولا فصل » الأصل الحسب والفصل اللسان[٧] .

ويخالف ما فى أساس البلاغة « وفلان لا أصل له ولا فصل » أى لا نسب له ولا لسان[٨] .

وهذا مثال يدل على علمه بالمفردات وحسن تصرفه فيها :

---

(١) اقتصاصك : ماتقصه علينا
(٢) معجم الأدباء ١٥ /٢٧
(٣) البصائر والذخائر ٢٣
(٤) لسان العرب ١٧ /١٦٤
(٥) القاموس المحيط ٤ /٢٤٩
(٦) البصائر والذخائر ٢٠
(٧) لسان العرب ١٣ / ١٧
(٨) أساس البلاغة ١ /١٤

قال فى ختام رسالة الصداقة والصديق : قد أتت هذه الرسالة على حديث الصداقة والصديق ، وما يتصل بالوفاق والخلاف والهجر والصلة والعتب والرضا والمذق والإخلاص والرياء والنفاق والحيلة والخداع والاستقامة والالتواء والاستكانة والاحتجاج والاعتذار . ولو أمكن لكان تأليف ذلك كله أتم مما هو عليه ، وأحرى إلى الغاية فى ضم الشكل إلى شكله …

ولكن العذر قد تقدم … وما من أحد إلا وله فى هذا الفن حصة ، لأنه لايخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سَكَن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو بعيد أو ولىّ أو خليط . كما لايخلو أيضاً من عدو أو كاشح أو مداج أو مكاشف أو حاسد أو شامت أو منافق أو مؤذ أو منابذ أو معاند أو مُستزِل أو مُضِل أو مُغِيل[1] .

علم الكلام :

فى أول الأمر سمى النظر فى العقائد والأحكام الدينية فقها .. ثم أطلق الفقه الأكبر على الاعتقادات ، والفقه على المعاملات .

ثم اختصت العقائد باسم علم التوحيد أوعلم الصفات ، نسبة للبحث إلى أشرف أجزائه ، أو علم الكلام[2] .

---

(١) الصداقة والصديق ٧٩

(٢) والسبب فى التسمية بعلم الكلام يرجع إلى واحد من عدة أسباب .

(ا) أن أكبر مسألة قام الخلاف بسببها هى كلام الله .

(ب) أنه بقوة أدلته صار كأنه هو الكلام ، دون ماسواه .

(جـ) أنه يورث قدرة على الكلام فى المسائل الشرعية ، كالمنطق فى المسائل الفلسفية .

(د) أنه كثرفيه الكلام مع المخالفين كثرة لم تكن فى غيره .

(هـ) أن المتكلمين أرادوا مقابلة الفلاسفة فى تسميتهم علما من علومهم بالمنطق . والمنطق والكلام مترادفان .

ذكر ياقوت أن أبا حيان محقق الكلام ، ومتكلم المحققين[١] . ووصفه السبكي بأنه متكلم صوفي[٢] . وقال ابن حجر[٣] إنه سمي التوحيدي ، نسبة إلى التوحيد ، إذا كان المعتزلة يسمون أنفسهم أهل التوحيد .

لكن الذي نعلمه من كتبه أنه لم يكن من علماء الكلام الذين استنفد الكلام جهدهم ، ولوّن آراءهم ، وطغى على ثقافتهم وتفكيرهم .

فهو يعيب المتكلمين ، وينتقص طريقتهم في البحث والاستدلال ، ويفضل الفلسفة عليها .

يدل على ذلك أنه سأل أبا سليمان المنطقي الفيلسوف عن الفرق بين طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة ، فأجابه بأن طريقة الفلاسفة أصح وأقوم ، وسجل هو إجابة أبي سليمان ، ولم يناقشه فيها ، ولم يعقب عليها . قال أبو سليمان : « طريقة المتكلمين مؤسسة على مقابلة اللفظ باللفظ ، وموازنة الشيء بالشيء ، إما بشهادة من العقل مدخولة ، وإما بغير شهادة منه البتة ، والاعتماد على الجدل ، وما يسبق إلى الحس ، أو يحكم به العيان ، أو على ما يسنح به الخاطر المركب من الحس والوهم والتخيل ... وكل ذلك يتعلق بالمغالطة والتدافع وإسكات الخصم بما اتفق ، وإتمام القول الذي لا محصول فيه ولا مرجوع له ، مع بوادر لا تليق بالعلم ، ومع سوء أدب كثير ، نعم ومع قلة تأله ، وسوء ديانة ، وفساد دخلة ، ورفض الورع بجملته .

والفلسفة — أدام الله توفيقك — محدودة بحدود ستة ، كلها تدلك على أنها بحث عن جميع ما في العالم ، مما ظهر للعين ، وبطن للعقل ، وما ركب بينهما ، ومال إلى أحد طرفيهما ... من غير هوى يمال به على العقل ، ولا إلف

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٥ (٢) طبقات الشافعية ٢/٤ (٣) المرجع السابق .

يفتقر معه إلى جناية التقليد ، مع إحكام الفعل الاختيارى ، وترتيب الفعل الطبيعى ، ومع أخلاق إلهية ، واختبارات علوية ، وسياسات عقلية .

ثم قال : وكان شيخنا يحيى بن عدى يقول : إنى لأعجب كثيراً من قول أصحابنا إذا ضمنا وإياهم مجلس : نحن المتكلمون ، ونحن أرباب الكلام .. كأن سائر الناس لا يتكلمون ، أو ليسوا أهل الكلام ، أما يتكلم ياقوم الفقيه و النحوى والطبيب والمهندس والمنطقى والمنجم والطبيعى والإلهى والحديثى والصوفى ؟[1] ...

ويدل على زرايته بطريقة المتكلمين ، وحملته على علم الكلام ، أنه قال فى تعقيبه على عجب أحد المعتزلة من أن أهل الجنة لا يملون الأكل والشرب والنكاح : « والكلام كله جدل ودفاع ، وحيلة وإيهام ، وتشبيه وتمويه ، ومخاتلة وتورية ، وقشر بلا لب ، وأرض بلا رَيْع ، وطريق بلا منار ، وورق بلا ثمر .. المبتدئ فيه سفيه ، والمتوسط شاكٌّ ، والحاذق متهم . وفى الجملة آفته عظيمة ، وفائدته قليلة »[2] .

ولم يكن السبب فى ذلك جهله بالفلسفة التى استعان بها علماء الكلام فى تفنيد آراء خصومهم ، وتعزيز آرائهم ، وإنما كان السبب أنه — على علمه بالفلسفة — رأى أن تظل مسائلها بعيدة عن مسائل الدين ، لأن الدين وحى والفلسفة تفكير بشرى « الفلسفة حق ، لكنها ليست من الشريعة فى شيء ، والشريعة حق لكنها ليست من الفلسفة فى شيء . وصاحب الشريعة مبعوث ، وصاحب الفلسفة مبعوث إليه . وأحدهما مخصوص بالوحى ، والآخر مخصوص ببحثه ، وهذا يقول : أُمِرْتُ وعُلِّمْتُ وقيل لى وما أقول من تلقاء نفسى ،

---

(١) المقابسات ٢٢٣ (٢) المقابسات ١٩٤

وهذا يقول : نظرت واستحسنت واستقبحت ... »[١]

هكذا روى أبو حيان عن أستاذه أبي سليمان، ولم يعلق عليه . ثم قال عن رسائل إخوان الصفا : « وحملت جملة منها إلى أبي سليمان المنطقى وعرضتها عليه ، ونظر فيها أياماً ، واختبرها طويلا ، ثم ردها على وقال : تعبوا وما أغنوا ، ونصبوا وما أجدوا ، وحاموا وما وردوا ، وغنوا وما أطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ... ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع ... ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسوا الفلسفة فى الشريعة ، وأن يضموا الشريعة للفلسفة . وهذا مرام دونه حدد (مشقات) . وقد توفر على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا أحد أنياباً ، وأحضر أسباباً ، وأعظم أقداراً ، وأرفع أخطاراً ... فلم يتم لهم ما أرادوه ، وحصلوا على لوثات قبيحة ، ولطخات فاضحة ، وألقاب موحشة ، وعواقب مخزية ، وأوزار مثقلة »[٢] .

ولهذا لم يعجبه إخوان الصفاء ، ولم يثن عليهم فى تعريفه بهم حينما سأله عنهم ابن سعدان[٣] .

وإذاً فلسنا مع الدكتور زكى مبارك فى ذهابه إلى أن أبا حيان كان من إخوان الصفا ، لكنه كان يخفى ذلك . قال :

« وينبغى أن نشير إلى أن التوحيدى كان من أنصار إخوان الصفا ، ولكنه كان يتستر اتقاء لسخط الجمهور ، وكانت طريقته فى تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات مريبة ، كقوله : « الشريعة طب المرضى والفلسفة طب الأصحاء والأنبياء يطبون للمرضى حتى لا يتزايد مرضهم ، وحتى يزول المرض بالعافية

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/١٨ (٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/٦
(٣) المرجع السابق ٤

فقط ، أما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلا ... »[١] .

ولهذا لم يؤثر عنه رأى مستقل خاص فى علم الكلام يصح أن ينسب إليه ، كما أثر عن الجاحظ مثلا . وسنعرف أنه كان عظيم الإعجاب بالجاحظ ، وأنه كان يقفو آثاره ويحاكيه . فللجاحظ[٢] بعض آراء خاصة ، وله فرقة اسمها الجاحظية .

فمن آرائه الخاصة أن المعارف كلها ضرورية طباع ، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد ، وليس للعبد كسب سوى الإرادة ، وتحصل أفعاله منه طباعاً .

ونقل عنه أنه أنكر أصل الإرادة وكونها جنساً من الأعراض ، فقال : إذا انتفى السهو عن الفاعل وكان عالمًا بما يفعله فهو المريد على التحقيق . وأما الإرادة المتعلقة بفعل الغير فهو ميل النفس إليه .

وزاد على ذلك إثبات الطبائع للأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، وأثبت لها أفعالا مخصوصة بها .

وقال إن أهل النار لا يخلدون فيها عذاباً ، بل يصيرون إلى طبيعة النار .

وقال إن الإنسان قادر على معرفة الخالق بعقله ، وعلى إدراك الحاجة إلى الوحى المنزل على الأنبياء الخ[٣] .

---

(١) النثر الفنى فى القرن الرابع ٢ / ١٤٣

(٢) تتلمذ الجاحظ على النظام المتوفى سنة ٢٢١ أو ٢٣١ هـ

(٣) الملل والنحل للشهرستانى ١/ ٧١

الشعر :

لم يكن أبو حيان شاعراً ، ولا شبه شاعر .

وليس يقدح فى هذا الحكم أن له بضعة أبيات من الشعر[(١)] ، لأن هذا القدر الضئيل لا يدل على شاعريته ، ولا على ممارسته للشعر ، تسلكه فى عداد الشعراء المقلين .

وهو نفسه يعترف بذلك فى قوله لابن سعدان إذ سأله عن أصحابه الشعراء ، وحكمه عليهم ، ورأيه فيهم : « لست من الشعر والشعراء فى شيء ، وأكره أن أخطو على دَحْض — مزلقة — ، لا أحتسى غير مَحْض »[(٢)] فلما ألح عليه ابن سعدان ، وصفهم له وصف الخبير البصير الحاذق .

على أنه ملأ بعض كتبه بشعر مختار جيد ، كما فى الصداقة والصديق ، ونقل عن ابن المعتز وأثنى عليه[(٣)] .

---

(١) الصداقة والصديق ١٧١
(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/١٣٤
(٣) الصداقه والصديق ٢٠٦

صلاته بوزراء عصره

عرفنا فى الحياة العلمية والأدبية أن ملوك العصر وولاته وأمراءه كانوا يتنافسون فى تقريب العلماء والأدباء ، ويخايلون بمن فى مُلكهم من هؤلاء .

لذلك كان من دأب رجال العلم والأدب أن يتصلوا بأمير أو بعدة أمراء ، لينالوا من رعايتهم ما يكفل لهم أسباب العيش ، ويعينهم على التفرغ للعلم أو للفن .

ولقد بلغ بعضهم بعلمه أو أدبه مرتبة عالية فى الدولة ، كابن العميد وابن عباد وأحمد بن يوسف وابن مسكويه . فكان طبيعيا أن يسلك أبو حيان ما سلكه هؤلاء ، وهو عالم أديب ذو مواهب ، وأغلب الظن أنه كان يرى نفسه أغزرمنهم علما ، وأخصب أدبا ، وأنصع بيانا . على أنه كان قد برم بالوراقة والنسخ، وتطلع إلى مال وَفْر ، أو منصب رفيع .

وقد فكَّر فيمن يتصل بهم ، فرأى أن تكون صلته بالوزراء الكبار الذين يشتهرون بميلهم إلى الأدب والأدباء ، والذين لهم يد فى تنشيط الحركة العلمية .

صلته بابن العميد

اتصل أولا بابن العميد .

فمن ابن العميد الذى اتصل به أبو حيان ؟

ذكر ياقوت أنه أبو الفضل بن العميد[1] ، وأن أبا حيان ألف فى ثلبه

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٥

وفى ثلب ابن عباد كتابه (مثالب الوزيرين) أو (أخلاق الوزيرين)[1] .

ثم نقل عن ياقوت من جاءوا بعده كابن خلكان[2] والسيوطى[3] والسندوبى[4] .

ولكن فى كتب أبى حيان ، وفى الصفحات التى نقلها ياقوت من كتاب مثالب الوزيرين أمرا يسترعى النظر ، ويجعلنا نرجح ترجيحا يقرب من اليقين أن المقصود ليس هو ابن العميد المشهور .

١ — ذلك أنه يصرح بقوله فى ذم ابن عباد بكلمة (الصاحب) أو (ابن عباد) أما ابن العميد فلم أجد تصريحا بأنه أبو الفضل بن العميد الذى كان يسمى الأستاذ والرئيس وذا الرياستين .

٢ — على حين أنه يصرح بكنيته فى معارض أخرى لا صلة لها بالثلب ، كقوله : « أبو عبيد القاسم بن سلام ، ولا تقل سلاّم ، فقد كان بعض من صحب أبا الفضل بن العميد إلى مدينة السلام سنة أربع وستين وثلاثمائة يقول ذلك ، فعابه البغداديون[5] » .

٣ — ويصفه مرة أخرى بالرئيس مع كنيته فى قوله : « هذا من رسالة لبعض من انتجع بها الرئيس أبا الفضل بن العميد »[6] .

٤ — ولو أن أبا الفضل ابن العميد كان هو المقصود بالذم مع ابن عباد لأصابه شواظ من قلم أبى حيان كلما ذكره ، لكنه لم يطعنه مرة واحدة كطعناته لابن عباد ، بل كان رفيقا به ، إذ ذكر ابنه أبا الفتح ، وقال إنه لو طال عمره

(١) معجم الأدباء ١٥ / ٢٦
(٢) وفيات الأعيان ٢ / ٤٧
(٣) بغية الوعاة ٣٤٨
(٤) مقدمة المقابسات ١٣
(٥) البصائر والذخائر ٣٤
(٦) المقابسات ١٦٣

لكان أكتب من أبيه وأشعر[1] . وقال عنه مرة : نضر الله وجهه[2] .

٥ — والصورة العامة التى صور بها ابن العميد تخالف حياة ابن العميد ، وتغاير ما ذكره عنه المؤرخون . فهو فى رأيه بخيل ، ماجن ، صاحب لهو وصيد ، حسود حقود ظالم ، كما سنتبين من بعض الفقرات فى ذمه .

ولم يكن أبو الفضل ابن العميد على شىء من ذلك .

فقد كان كريما ، يقصده الشعراء بفارس ، ومنهم أبو الطيب المتنبي .

وكان عظيم القدر مهيبا ، مدحه الصاحب بن عباد ، وكتب له ، ومدحه ابن مسكويه وخدمه[3] .

وكان الأدباء يجلونه لعطاياه وأدبه ، فهو فى رأى الثعالبى أوحدُ العصر فى الكتابة ، يدعى الجاحظ الأخير ، ويضرب به المثل فى البلاغة ، وينتهى إليه فى الإشارة بالفصاحة والبراعة ... وكان يقال بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد[4] .

٦ — ثم إن العداوة التى تحدث عنها أبو حيان فى كتابه مثالب الوزيرين ، لم تكن بين الصاحب وأبى الفضل بن العميد ، إذ أن الصاحب كان قد كتب لأبى الفضل أيام وزارته ، وكان مخلصا له ، ولم يكن يغار من ذكره والثناء عليه ، كما قد يتبادر إلى الذهن من كلام أبى حيان .

وإذاً فلا مندوحة من أن يكون المقصود شخصا آخر .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٦٦/١

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٣/٢

(٣) يتيمة الدهر ١٣٩/٣ — ١٤٣

(٤) اليتيمة ١٣٧/٣

فمن ذلك الذى قصده أبو حيان ؟

المقصود هو أبو الفتح ابن العميد ، وهو ابن أبى الفضل ابن العميد المعروف بالأستاذ والرئيس وذى الرياستين .

ولنا على هذا الرأى أدلة شتى :

١ — صرح بهذا أبو حيان فى قوله إن أبا الوفاء المهندس قال له : « إنك تعلم يا أبا حيان أنك انكفأت من الرى إلى بغداد فى آخر سنة سبعين (وثلاثمائة) بعد فوت مأمولك من ذى الكفايتين — نضر الله وجهه — عابسا على ابن عباد ، مغيظا منه ، مقروح الكبد ، لما نالك من الحرمان المر ، والصد القبيح ، واللقاء الكريه ، والجفاء الفاحش[1] ... !!

وإذا فان العميد الذي قصده أبو حيان ، وهجاه ، هو الابن لا الأب ، وقد كان الأب يلقب بالرئيس وبالأستاذ وبذى الرياستين ، أما الابن فكان يلقب بذى الكفايتين[2] ، وقد وزر الأول لركن الدولة ابن بويه ، وتوفى سنة ٣٦٠ ، فخلفه ابنه فى الوزارة لركن الدولة ، ثم لمؤيد الدولة ، وتوفى سنة ٣٦٦ هـ .

٢ — وهذا نص آخر يزيد الأمر وضوحا ، ويؤكد أن المقصود هو الابن لا الأب .

قال أبو حيان : فأما ابن العميد فإنى سمعت ابن الجمل يقول عن ابن ثوابة : أول من أفسد الكلام أبو الفضل ، لأنه تخيل مذهب الجاحظ ، وظن أنه إن تبعه لحقه ، فوقع بعيدا من الجاحظ . ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٣ (٢) معجم الأدباء ١٤ / ١٩١

مدَّبر بأشياء لاتلتقى عند كل إنسان ، ولا تجتمع فى صدر كل أحد : بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ ...

وأما ابنه ذو الكفايتين فلو عاش كان أبلغ من أبيه ، كما كان أشعر منه . ولقد تشبه بالجاحظ فافتضح فى مكاتبته لإخوانه ، ومجانته فى كلامه ، ومسائله لمعلمه التى دلتنا على سرقته وغارته وسوء تأتيه فى تستره وتغطيه . ومن شاء حقَّق نفسه . وكان مع هذا أشد الناس ادعاء لكل غريبة ، وأبعد الناس من كل قريبة ، وهو نَزْر المعانى ، شديد الكلف باللفظ ، وكان أحسد الناس لمن خط بالقلم ، أو بَلَغ باللسان ، أو فَلَج فى المناظرة ... ولقد لقى الناس منه الدواهى لهذه الأخلاق الخبيثة . وقد ذكرت ذلك فى الرسالة »[1] ...

فهو فى هذا النص يحمل على أبى الفتح ابن العميد ، ويعقب على حملته بأنه ذكر ذلك فى الرسالة . والمقصود بالرسالة كتاب مثالب الوزيرين : ابن العميد وابن عباد .

٣ — وصرح مرة ثالثة بأنه إنما يثلب أبا الفتح ابن العميد فى قوله : « وهذا بالأمس على بن محمد ذو الكفايتين اغتر بشبابه ، ولها عن الحزم والأخذ بما كان أولى به ، وظن أن كفايته تحفظه ، ونسبه يكنفه ... ومشى فعثر ، وراب فخثر ... »[2]

وابن العميد الكبير اسمه محمد لا على .

٤ — وصرح مرة رابعة بأن المذموم هو ذو الكفايتين فى قوله :

وقصدت مع أبى زيد المروزى دار أبى الفتح ذى الكفايتين ، فمنعنا من

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٦٦ (٢) الإمتاع والمؤانسة ٣ / ٢١٢

الدخول عليه أشد منع ، وذكر حاجبه أنه يأكل الخبز ، فرجعنا بعد أن قال أبو زيد للحاجب : أجلسنا فى الدّهليز إلى أن يفرغ من الأكل ، فلم يفعل ... »[1]

٥ — وحين نرجع إلى غير أبي حيان ؛ لنتعرف أخلاق أبي الفتح ابن العميد ، ونعود إلى وصف أبي حيان نجد تشابها قويا ، يؤكد أنه هو المقصود لا أبوه .

فهو كما وصفه أبو حيان مغرور ، بخيل ، ماجن ، صاحب لهو وصيد وشراب ، حسود ، ظالم .

وهو كذلكَ فى رأى أبي على مسكويه . وكان أبوه أبو الفضل ابن العميد يغضب من فعله ، ويلومه ، حتى لقد مات بِرمابه ، متشائما على آل العميد من فعلاته .

ذكر أبو على مسكويه فى بعض كتبه أن أبا الفتح ابن العميد سار مع أبيه ومع القواد لإخماد فتنة « وكان شابا قد خلف أباه بحضرة ركن الدولة ، وعرف تدبير المملكة وسياسة الجند ، فهو بذكائه وحدة ذهنه وسرعة حركته قد نفق نفاقا شديدا على ركن الدولة . وهو مع ذلك لقلة حُنكته ونزق شبابه ، وتهوره فى الأمور يقدم على ما لايقدم عليه أبوه . ويحب أن يسير فى خواص الدَّيلم ، وهم يمشون بين يديه ، ويختلط بهم اختلاط من يستميل قلوبهم ، ويخلع عليهم خلعا كثيرة ، ويحمل رؤساءهم وقوادهم على الخيول الفُرَّه بالمراكب الثقال ، ويريد بجميع ذلك أن يسلّموا له الرياسة ، حتى لا يأنف أحد منهم من تقبيل الأرض بين يديه ، والمشى قدامه إذا ركب . وكان جميع ذلك

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٩

مما لا يؤثره الأستاذ الرئيس ، ولا يرضاه لسيرته . وكان يعظه وينهاه عن هذه السيرة ، ويعلمه أن ذلك لو كان مما يُرَخَّص فيه لكان هو بنفسه قد سَبق إليه[1] ...

وذكر مسكويه أن أبا الفتح ترك أباه فى السفر لإخماد فتنة ، وأضاف القواد فى الصحراء . وخرج مع جماعة للصيد « فاستشاط أبوه من ذلك ، وساءه أن يجرى مثل هذا ، ولا يستأذن فيه ، ولم يأمن أن يستمر هذا التشتت من العسكر ، وهو فى وجه حرب ، فتمم عليه حيلة ، فدعا أكبر حجابه ووصاه أن يحجب هذه ابنه أبا الفتح ، وأن يوصى النقباء بمنع الديلم من مسايرته ومخالطته ، وظن أن هذا المبلغ من الإنكار سيَغُض منه ، وينهى العسكر عن اتباعه على هواه ، فلم يؤثر كلامه هذا كبير أثر . وعاد الفتى إلى عادته ، واتبعه العسكر ، ومالوا معه إلى اللعب والصيد والأكل والشراب ، وكان لا يُخْليهم من الخِلع والإلطاف ، فشق ذلك على الأستاذ الرئيس جداً ...

فدارى أمره ، وتجرع غيظه ، وأداه ذلك إلى زيادة فى مرضه ، حتى هلك بهمذان ، وهو يقول فى خلواته : مايهلك آل العميد ، ولا يمحو آثارهم من الأرض ، إلا هذا الصبي — يعنى ابنه — . ويقول فى مرضه : ما قتلنى إلا جُرَعُ الغيظ التى تجرعتها منه »[2] .

ونقل ياقوت عن مسكويه أن أبا الفتح كان فيه — مع رجاحته وفضله فى أدب الكتابة وتيقظه وفراسته — نَزَقُ الحداثة ، وسُكْر الشباب ، وجرأة القدرة ، فأجرى أمره على ما تقدم من إظهار الزينة الكثيرة ... حتى خرج عن

---

(١) معجم الأدباء ١٤ / ٢٢٧

(٢) معجم الأدباء ١٤ / ٢٢٧ — ٢٣٣

حد القصد إلى الإسراف ، فجلب ذلك عليه ضروب الحسد من السلاطين وأصحاب السيوف والأقلام …

فأنكر عليه هذا الفعلَ عضدُ الدولة ومؤيد الدولة ابنا ركن الدولة ، وكتابهما ، ثم سائر مشايخ الدولة »[1] .

وكذلك هو فى رأى الوزير أبى سعيد منصور الآبى ، قال :

تولى أبو الفتح ابن العميد الوزارة بعد أبيه ، لركن الدولة ، وسنة إحدى وعشرون سنة . وكان قد ولد فى النعمة الفخمة ، ونشأ فيها ، واعتاد أن يخدمه الأمراء والقواد ، فكان يركب إلى الصيد وإلى الميدان لضرب الصّوالجة ، فيتبعه أكثر أكابر الحضرة ، فيترجلون له ويمشون بين يديه .

ثم يضيف فى أكثر أيامه جماعة منهم ، فيخلع عليهم أنواع الخلع النفيسة ، ويحملهم على الدواب الفارهة بالمراكب الثقيلة[2] .

وكان صاحب قصف وطرب[3] .

وقال أبو حيان :

حدثنى أبو الطيب الكيميائى قال : قلت لأبى الفضل ابن العميد بعد أن سمّ الحاجب النيسابورى ، ودسّ إلى ابن هند وغيرهم من أهل الكتابة والمروءة والنعم : لو كففتَ ، فقد أسرفتَ . فقال : يا أبا الطيب أنا مضطر . . . فقلت له : هذا كله بسبب ابنك أبى الفتح ، والله إن أيامه لاتطول ، وإن عيشه لايصفو ، وإن حاله لا يستقيم ، وله أعداء لايتخلص منهم ، وقد دل مولده على ذلك ، وإنك لاتدفع عنه قضاء الله ، وهو لايغنى عنك من الله شيئاً[4] .

---

(١) معجم الأدباء ١٤ / ٢٣٥ (٢) معجم الأدباء ١٤ / ٢٠٧
(٣) المعجم ١٤ / ٢٠٨ (٤) معجم الأدباء ١٤ / ٢١١ — ٢١٣

والابن هو الذى اشتهر بالمجون لا الأب ، بل إن الأب كان يعجب من مجون ابنه ويستنكره .

حدث أبو الفتح منصور الأصبهانى أن أبا الفتح كتب إلى بعض خاصته بيتين ماجنين[١] ، وأن أباه وجد الرقعة ، وقرأها ، فلما عرف أن ابنه هو الذى نظمهما غضب ، وقال : أمثلُ ولدى يكتب مثل هذا الفحش والفجور ؟ ثم قال : أما والله لولا ولولا . ثم أمسك ، كأنه يشير إلى ماحكم له من سوء العاقبة وقصر العمر[٢] .

٦ — ولا غرابة فى أن يطلق عليه أبو حيان ابن العميد ، لأنه كان أحيانا يطلق عليه (أبو الفتح ذو الكفايتين)[٣] ، أو (ذو الكفايتين)[٤] أو (ذو الكفايتين أبو الفتح)[٥] أو (أبو الفتح)[٦] . وكان أحيانا يطلق عليه (ابن العميد)[٧] وهو يريد الابن لا الأب ، تلقيبا له باسم جده ، كما لقب أبوه باسم هذا الجد ، لخفته على اللسان ، وتعارف الناس على تسمية الأسرة باسمه .

٧ — وإذا كان قد أثنى على أبى الفتح على مسمع من ابن عباد ، فإن هذا الثناء لايناقض أنه هو المقصود بهجائه ، لأنه كان يريد إغارة ابن عباد ، وتزيين الكرم له ، حتى لايكون أقل شأنا من منافسه أبى الفتح ابن العميد ، ولأنه حينما مدح أبا الفتح فى مجلس ابن عباد لم يكن قد هجاه بعد ، وإنما هجاه وهجا ابن عباد بعد أن فارقه يائسا منه ، كما يئس من أبى الفتح ابن العميد قبله .

---

(١) معجم الأدباء ١٤ / ٢٠٢
(٢) معجم الأدباء ١٤ / ٢٠٣
(٣) معجم الأدباء ١٤ / ٢١٣
(٤) ١٤ / ٢١٤
(٥) ١٤ / ٢١٦
(٦) ١٤ / ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠
(٧) ١٤ / ٢١٦

ثم إن أبا حيان لم يجعل كتابه كله هجاء للوزيرين ، بل شهد لهما بكثير من الفضل ، وعنفهما حيث يستحقان التعنيف فى نظره ، وإن كان أشد قسوة على الصاحب ، كما سيتضح لنا من دراسة الكتاب . فثناؤه على أبى الفتح ماهو إلا اعتراف بالحق الذى يعرفه أبو حيان .

قال أبو حيان فى تمجيد أبى الفتح على مسمع من ابن عباد :

« ما ذنبى إذا قال لى — يريد ابن عباد — هل وصلت إلى ابن العميد أبى الفتح ؟ فأقول : نعم رأيته ، وحضرت مجلسه ، وشاهدت ما جرى له ، وكان من حديثه فيما مُدح به كذا وكذا ، وفيما تقدم منه كذا وكذا ، وفيما تكلفه من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا وكذا ، ووصل أبا سعيد السيرافى بكذا وكذا ، ووهب لأبى سليمان المنطقى كذا وكذا ، فينزوى وجهه ، وينجذب إلى شىء آخر ليس مما شرع فيه ولا مما حرّك له . ثم يقول : أعلم أنك إنما انتجعته من العراق ، فاقرأ علىّ رسالتك التى توسلتَ إليه بها ، وأسهبت مقرظا له فيها ، فأتمانع ، فيأمر ، ويشدد ، فأقرؤها فيتغير ويَذْهل »[1]

على أنه قد اعترف لأبى الفتح بالعلم وإعزاز الأدباء وإجزال العطاء لهم حينما زار بغداد ، فلم يغمطه حقه ، أو يتجاهل مآثره[2] .

وشبيه بهذا أن أبا حيان فصل المقال فى النزاع بين أبى الفتح ابن العميد والصاحب ابن عباد ، وسبب القبض على أبى الفتح[3] غير متحيز إلى أحدهما ، وغير شامت فى أيهما . وعلى الرغم من حنقه الشديد على ابن عباد فى مواضع

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٣٦ (٢) معجم الأدباء ١٤/٢١٣ — ٢١٥

(٣) معجم الأدباء ١٤/٢١٥ — ٢٢٧

الأخرى من كتابه ، فإنه ختم تفصيل الحادث بقوله : « وولى ابن عباد الوزارة ، ودبرها برأى وثيق ، وجد دقيق » .

وبعد :

فإننا نكاد نوقن بأن المقصود هو ابن العميد الصغير ، وهو على بن محمد ابن الحسين ، الملقب بذى الكفايتين ، كناية السيف وكفاية القلم ، وزر لركن الدولة البويهى لما مات أبوه أبو الفضل ابن العميد سنة ٣٦٠ هـ ، ثم وزر لابنه مؤيد الدولة ، إلى أن قتل سنة ٣٦٦ هـ[1] .

---

(١) معجم الأدباء ١٤ / ١٩١ ، ٢٠٥

صلته بابن عباد

من ابن عباد ؟

اتصل بالصاحب ابن عباد بعد أن اتصل بابن العميد ، ثم هجاهما معا فى كتابه مثالب الوزيرين[1] . وكان إخفاق أمله فى ابن العميد — أبى الفتح لا أبى الفضل كما رأينا — باعثا له على أن يؤمل فى ابن عباد . فعاش فى بلاطه بمدينة الرى من عام ٣٦٧ إلى ٣٧٠ هـ (٩٧٧— ٩٨٠ م) ، ولكنه لم ينل حظوته عنده[2] ، ففارقه إلى بغداد . وهو يتحدث عن إخفاقه بقوله : فارقت بابه سنة سبعين وثلاثمائة ، راجعا إلى مدينة السلام بغير زاد ولا راحلة ، ولم يعطنى فى مدة ثلاث سنين درهما واحدا ، ولا ما قيمته درهم واحد »[3] .

وقبل أن نعرض رأيه فى الصاحب نعرف به تعريفا وجيزا ، يكشف عن علمه وأدبه وأخلاقه ومكانته .

ثم نعلل لإخفاق أبى حيان فى صلته به .

١ — كتب الصاحب (إسماعيل بن عباد) لأبى الفضل ابن العميد وهو وزير ، ثم كتب لمؤيد الدولة ابن ركن الدولة البويهى وهو أمير . فلما تولى مؤيد الدولة بعد أبيه استوزر أبا الفتح ابن العميد ، ثم استوزره الصاحب ، وحكمه فى أمواله ، وهو الذى كان لقبه بالصاحب أيام إمارته ، لأنه كان يصحبه ويأنس به[4] . وقيل إنه سمى

---

(١) معجم الأدباء ١٥ / ٥

(٢) مرجليوث . دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ / ٣٣٤

(٣) معجم الأدباء ١٥ / ٣٢ .

(٤) معجم الأدباء ٦ / ١٧٣ وبغية الوعاة ١٩٦

بالصاحب ، لأنه صحب ابن العميد[١] . فلما مات مؤيد الدولة مكّن الصاحب لأخيه فخر الدولة أن يملك البلاد ، فأقر الصاحب على الوزارة ، وبقى بها مقدم الكلمة إلى أن مات سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) بعد أن قضى فى الوزارة ثمانى عشرة سنة وشهرا واحدا[٢] .

٢ — وقد كانت الخصومة شديدة بين أبى الفتح ابن العميد والصاحب ابن عباد ، لأن مؤيد الدولة استوزر أبا الفتح أولا ، فأراد أبو الفتح أن يطمئن على منصبه ، فطلب من مؤيد الدولة أن يبعد ابن عباد عن الرّى — العاصمة آنذاك — فأبعده إلى أصبهان ، فلما عزل أبو الفتح وصودرت أملاكه وسجن وقتل ، حل ابن عباد فى الوزارة محله .

ولهذا عاش الرجلان متعاديين ، وكانت كراهية ابن عباد لأبى الفتح ذات أثر فى صلة ابن عباد بأبى حيان كما سيجىء .

وهناك سبب آخر لتعادى الرجلين ، أن أبا الفتح كان قد دبر الحيلة للقضاء على ابن عباد ، وأن ابن عباد كان قد فعل مثله ، حتى قيل إن دسائس ابن عباد هى التى عزلت أبا الفتح[٣] .

٣ — درس الصاحب على أبيه وعلى ابن العميد وابن فارس[٤] .

وكان مولعا بالقراءة واقتناء الكتب ، لهذا اعتذر لنوح بن منصور ملك خراسان إذ أرسل إليه يستدعيه ليسلم له مقاليد مملكته ويتخذه وزيرا ، بأن كتبه تحتاج إلى أربعمائة بعير وأكثر لنقلها[٥] .

---

(١) وفيات الأعيان ١ / ٢٧٥ (٢) معجم الأدباء ٦ / ١٧١

(٣) معجم الأدباء ٦ / ١٧٢ ، ٢٥٠ و ١٤ / ١٩٤ ، ٢٠٦ ويتيمة الدهر ٣/١٦٧

(٤) وفيات الأعيان ١ / ٧٥

(٥) يتيمة الدهر ٣ / ٣٥ ومعجم الأدباء ٦ / ٢٥٩

وقد رأى الحسن البيهقى مكتبة الصاحب بمدينة الرى ، وقال إن فهرس كتبها فى عشرة مجلدات[1] .

وخلّف الصاحب مؤلفات شتى ، منها : المحيط باللغة فى عشرة مجلدات ، وديوان رسائله فى عشرة مجلدات ، والكافى (رسائل) والزيدية ، وغيرها[2] .

وكان الناس على ثقة من علمه وأدبه ، ولذا تزاحموا على دروسه[3] .

٤ — وقد اشتهر بالكرم والإغداق على الأدباء الذين يمدحونه ، ففى كل ليلة من رمضان كان يفطر عنده ألف نفس[4] .

ومدحه خمسمائة شاعر من أرباب الدواوين[5] ، وكان يغدق عليهم ، ويقربهم ، ويعرف أقدارهم ، وكانوا به معجبين ، وطالما مدحوه وأشادوا به .

بل كانت فواضله تغمر مَنْ فى بغداد ومكة والمدينة من أهل الشرف والكتاب والشعراء وأولاد الأدباء والزهاد والفقهاء[6] .

وكان فى مجالس العلماء والأدباء ديمقراطيا ، يقول لهم : نحن بالنهار سلطان وبالليل إخوان[7] .

حدث أبو الحسن النحوى قال : كان مكى المنشد قديم الصحبة والخدمة للصاحب ، فأساء إليه غير مرة ، والصاحب يتجاوز له . فلما كثر ذلك منه حبسه فى دار الضرب ، وكانت فى جواره ، فصعد الصاحب يوما سطح داره ، وأشرف على دار الضرب ، فناداه مكى وقال « فاطّلع فرآه فى سواء

---

(١) معجم الأدباء ٦ / ٢٥٩
(٢) معجم الأدباء ٦ / ٢٦٠
(٣) بغية الدعاة ١٩٦
(٤) يتيمة الدهر ٣ / ٣٦
(٥) معجم الأدباء ٦ / ٢٥٧
(٦) معجم الأدباء ٦ / ٣٠٠
(٧) المعجم ٦ / ١٨٦

الجحيم » فضحك الصاحب وقال له : « اخسئوا فيها ولا تكلمون » ثم أمر بإطلاقه[1] .

وأطراه الثعالبي كثيرا ، من إطرائه قوله : « ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله فى العلم والأدب ، وجلال شأنه فى الجود والكرم ، وتفرده بغايات المحاسن ، وجمعه أشتات المفاخر .. هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان . ولولاه ما قامت للفضل فى دهرنا سوق . وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم ، وأمواله مصروفة إليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته فى مجد يشيده ، وإنعام يجدده ... واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد » :

وذكر أسماء الذين وفدوا عليه من شعراء وكتاب وخطباء ، وأسماء الذين راسلوه ، وهم كثير[2] .

٥ — وقد كان الصاحب مهيبا فى عيون الحكام ، مثل مهابته فى عيون العلماء والأدباء .

فى سنة ٣٧٠ هـ ورد الصاحب ابن عباد الخدمة عن مؤيد الدولة وعن نفسه ، فتلقاه عضد الدولة على بعد من البلد ، وبالغ فى إكرامه ، ورسم لأكابر كتابه وأصحابه تعظيمه ، ففعلوا ذلك ، حتى إنهم كانوا يسعون إليه مدة مقامه ، ولم يسع هو إلى أحد منهم .

---

(١) المعجم ٦ / ١٨٦

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ٣ / ١٦٩

ثم وردت كتب مؤيد الدولة يستطيل فيها مقام الصاحب ، ويذكر اضطراب أموره فى بعده .

وخلع عضد الدولة على الصاحب الخلع الجليلة ، وحمله على فرس بمركب ذهب ، وأقطعه ضياعا جليلة بنواحى فارس[1] ...

وقد ذكر الآبى فى تاريخ ابن عباد أنه قد كان جليل القدر عند الخاصة والأمراء ، وأن أمه لما توفيت سنة ٣٨٤ هـ ركب إليه سلطانه وولى نعمته فخر الدولة ابن ركن الدولة معزيا ، وجلس عنده طويلا يعزيه . فأما سائر الأمراء والقواد والأكابر والأماثل فقد حضروا حفاة حُسَّرا . وكان كل واحد منهم إذا وقعت عينه على الصاحب قبَّل الأرض ثم دنا منه ، فيأمره الصاحب بالجلوس فيجلس[2] ...

ولم يكن تقدير الناس له فى حياته عن رهبة أو مَلَق ، لأنهم قدروه ميتا أيضاً ، يدل على ذلك أنه لما جهز بعد الوفاة وضع فى تابوته ، وأخرج على أكتاف حامليه للصلاة عليه ، فقام الناس بأجمعهم ، فقبلوا الأرض بين يديه ، وخرقوا ثيابهم ، ولطموا وجوههم ، وبلغوا فى البكاء والنحيب جهدهم[3] .

لماذا أهمل ابن عباد :

شكا أبو حيان مرارا من إهمال الصاحب له ، ومن خيبة أمله فيه ، وهجاه هجاء مقذعا فى كتابه مثالب الوزيرين ، وفى كتابه الإمتاع والمؤانسة كما سيجىء .

ولم يكن إهمال ابن عباد لأبى حيان جريا على إهماله لغيره من العلماء والأدباء ،

---

(١) ذيل تجارب الأمم ١١ (٢) معجم الأدباء ٦/٢٣٨

(٣) معجم الأدباء ٦/٢٥٧

فقد عرفنا أنه كان عظيم الإكرام لهم . ولا لغيرته منه ، أو حسده له ، كما صور أبو حيان ، وإنما يرجع إهماله له إلى أسباب أخرى نراها .

١ — لم يكن أبو حيان على قسط من اللباقة التى تحببه إلى الوزير ابن عباد ، وهو وزير معتد بنفسه ، معتاد على مراسم فى معاملة الوزراء من أبناء الفرس ، وقد كتب — قبل أن يكون وزيرا — لابن العميد وللأمير مؤيد الدولة البويهى ، فعرف مداخل الناس إلى القلوب ، وجرب الكياسة فى مجالس الكبراء والساسة .

أما أبو حيان فكان عالما أديبا متصوفا معتدا بعلمه وأدبه ، وكان لا يراعى التقاليد التى ألفها ابن عباد ، ويريد أن يستنّها جلساؤه وأتباعه فى معاملته .

فقد مدح خصمه البغيض إليه أبا الفتح ابن العميد على مسمعه[1] ، وهو يعلم ما كان بينهما من موجدة ، كانت تحتم عليه أن يلوذ بالصمت إذا ما جاء ذكر أبى الفتح ، أو يصرف الحديث إلى وجه آخر ، أو يذكر المثالب التى يعرفها عن أبى الفتح .

ولا يشفع لأبى حيان أن الصاحب هو الذى كان يطلب منه أن يسمعه أخبار ابن العميد ، فإن أبا حيان نفسه يعترف بأن الصاحب كان يضيق صدره ، ويتجهم . ويظهر أن بعض الناس قد لام أبا حيان فى ذلك ، وفى إسماعه رسالته المطولة التى توسل بها إلى أبى الفتح ابن العميد ، لأنه يقول : « كان يقال لى من بعد : جنيت على نفسك حين ذكرت عدوه عنده بخير ، وأثنيت عليه ، وجعلته سيد الناس »[2] .

٢ — وكان يتجرأ فى مجلس الصاحب ، ويرد عليه ، ويمازحه ، ولم يكن الصاحب يطيق ذلك .

---

(١) معجم الأدباء ١٥/ ٣٧ (٢) معجم الأدباء ١٥/ ٤٣

وحدث أبو حيان فقال : «قال لى ابن عباد يوماً : يا أبا حيان ، من كنّاك بأبى حيان ؟ قلت : أجلُّ الناس فى زمانه ، وأكرمهم فى وقته . قال : ومن هو؟ ويلك . قلت : أنت . قال : ومتى كان ذلك ؟ قلت : حين قُلتَ : يا أبا حيان ، من كناك أبا حيان . فأضرب عن هـذا الحديث ، وأخذ فى غيره على كراهة ظهرت عليه »(١) .

ومن حق أبى حيان أن يدهش من تجهم ابن عباد إذ سمع هذا الرد الجميل ، وهذا التخلص الفكه ، ومن حقه أن ندهش معه ، ونلوم ابن عباد على تكرهه واشمئزازه . لكن من بعض الإنصاف لابن عباد أن نذكر بأنه كان جاداً فى سؤاله ، فهو يتوقع الجواب الصريح لا المفاكهة والمداورة ، لأنه سأل أبا حيان عمن كناه بهـذه الكنية ، وكان ينتظر الجواب لا اللف والدوران والخداع وما يشبه الضحك منه ، إذ أنه مُكَنّى بأبى حيان قبل أن يقول له ابن عباد : يا أبا حيان .

وكذلك ذكر أبو حيان أنه لما وصل إلى الصاحب قال له : أبو مَنْ ؟ فقال : أبو حيـان : فقال الصاحب : بلغنى أنك تتأدب . فأجاب بقوله : تأدُّبَ أهلُ الزمان .

فسأله الصاحب : أبو حيان ينصرف أولا ينصرف ؟ فأجاب بقوله : إن قبله مولانا لا ينصرف . فلما سمع الصاحب هذه الإجابة تنمر ، وكأنها لم تعجبه ، وأقبل على واحد إلى جانبه ، وقال له بالفارسية سَفَهاء ، كما نقل إلىّ بعد(٢)

والمشكلة هنا أن الصاحب جاد وأبا حيان هازل متفكه . فهو يسأله عن كلمة (حيان) أتنصرف أم لا تنصرف ، ويتوقع الجواب الصرفىّ ، فإذا هو يسمع جواباً

(١) معجم الأدباء ١٥/ ٢٨ (٢) معجم الأدباء ١٥/ ٢٧

آخر من أسلوب الحكيم ، وفيه دعابة أقرب ما تكون إلى الخداع .

(٣) ويظهر من بعض ما أورده أبو حيان أنه كان يباهي بعلمه في مجلس ابن عباد ، وكان لا يراعي ما يقتضيه المقام في كثير من الأحيان .

حدث أن ذكر الصاحب أن الكلمات التي على وزن فَعْل لا تجمع على أفعال إلا قليلا ، ومثل لذلك بثلاث كلمات ، فرد عليه أبو حيان بأن هذا الحكم الذي قال به النحاة ينقضه الاستقراء والسماع ، وبأنه يحفظ ثلاثين كلمة على وزن فَعْل وتجمع على أفعال ، فطالبه الصاحب بذكرها ، فذكرها وذكر مراجعها ، ثم أراد أن يستطرد إلى التدليل على خطأ آخر للنحاة ، فلم يستمع له الصاحب وقال له : « لا تَهَب آذاننا لكلامك ، ولم يف ما أتيتَ به بجرأتك في مجلسنا ، وتبسطك في حضرتنا[1] » .

وقال أبو حيان : قال لي الصاحب يوماً — وهو يُحَدِّث عن رجل أعطاه شيئاً فتلكأ في قبوله — : ولا بُدَّ من شيء يمين على الدهر . ثم قال : سألتُ جماعة عن صدر هذا البيت فما كان عندهم علمه .

فقلت : أنا أحفظ ذاك . فنظر بغضب فقال : ما هو ؟ قلت : نسيتُ . فقال : ما أسرع ذكرك من نسيانك . قلت : ذكرتُه والحال سليمة ، فلما استحالت عن السلامة نسيتُ . قال : وما حَيلُولتها ؟ قلت : نظر الصاحب بغضب ، فوجب في حسن الأدب ألا يقال ما يثير الغضب . قال : ومن تكون حتى نغضب عليك ؟ دع هذا وهات ؛ قلت : قَوْلَ الشاعر :

الام على أخذ القليـــل وإنما أصادف أقواما أَقَلّ من الذّر

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٢٧

فإن أنا لم آخذ قليـــلا حُرِمْتُـه ولا بد من شيء يعين على الدهر

فسكت[1] .

وهنا أخطأ أبو حيان ، وأخطأ الصاحب .

أما أبو حيان فقد أخطأ ، لأن فى جهره بأنه يعلم ما جهله الصاحب وغيره تعالياً على الصاحب يؤذيه ، ولأن فى ذكر البيتين معاً تشنيعاً على الصاحب ، فلقد كان الرجل الذى ذكر للصاحب عجز البيت الثانى لبقاً ، لجأ إلى التعريض البعيـد ، فجاء أبو حيان ، فطرح اللباقة جانباً ، وذكر البيتين معاً ، فجرح الصاحب ، لأنه جعله بإعطائه القليل أقل من النمل .

ولعل الصاحب كان يعرف البيتين ، لـكنه يتجاهل ، ولعل الذين سألهم كانوا يعرفونهما ، لـكنهم تجاهلوا ، رعاية لقدر الصاحب وكرامته .

(٤) ثم إن أبا حيان أساء إلى ابن عباد فى حادثين آخرين ذكرها ، ولم تخفَ إساءته على ابن عباد .

قال أبو حيان إنه لما وصل إلى الصاحب قال له : الزم دارنا ، وانسخ هذا الـكتاب . فقال أبو حيان : أنا سامع مطيع . ثم شكا لبعض الناس بأنه توجه من العراق إلى الصاحب ليتخلص من حرفة الشؤم ، فإن الوراقة لم تـكن ببغداد كاسدة . فَنَمى هذا الـكلام إلى الصاحب كله أو بعضه ، أو على غير وجهه ، فزاده تنـكراً[2] .

وهنا يظهر أبو حيان غير صبور ، ومتسرعاً إلى العطاء أو إلى وظيفة ، ويظهر على قدر كبير من الجهـل بما يدور فى قصور الأمراء والوزراء من

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٣٢   (٢) معجم الأدباء ١٥/ ٢٧

دسائس ، والراجح أن كلامه نقل مشوّها كما توقع ، والراجح أن الذين سمموا تَمَنُّمه وتكرهه لنسخ الكتاب وجدوا الفرصة مواتية لإبعاد هذا الغريب الطارىء ، الذى قد يستأثر ببعض مالهم من حظوة ، فسَمَّموا بينه وبين الصاحب .

وحدث أبو حيان قال : قدّم إلىّ (نجاح) الخادم — وكان ينظر فى خزانة كتب الصاحب ثلاثين مجلدة من رسائله ، وقال : يقول لك مولانا : انسخ هذا ، فإنه قد طلب منه بخراسان ، فقلت بعد ارتياء (تدبر وإمعان) : هذا طويل ، ولكن لو أُذِنَ لخرّجتُ منه فِقَراً كالغُرر ، وشذوراً كالدرر ، تدور فى المجالس كالشّمامات والدّستَنبَويهات[1] ، لو رُقِي بها مجنون لأفاق ، أو نُفِثَت على ذى عاهة لبرأ ، لا تُمَلُّ ولا تستَغَثُّ ، ولا تعاب ولا تُستَركُ[2] .

فرفع ذلك إليه — وأنا لا أعلم — فقال الصاحب : طعَنَ فى رسائلى وعابها ، ورغب عن نسخها ، وأزرى بها ، والله لينكرنّ منى ما عرف ، وليعرفن حظه إذا انصرف . حتى كأنى طعنت فى القرآن ، أو رميت الكعبة بخِرق الحيض ، أو عقرت ناقة صالح ، أو سَلَحتُ فى بئر زمزم ... »[3]

فهو يستكره أن ينسخ رسائل الصاحب .

ويصرح بأنه يستطيع استخلاص فقر منها أعظم قيمة من غيرها ، أى أنه أعظم خبرة بالجيد والردىء من صاحب الرسائل . ولا شك فى أن هذا يغضب ابن عباد ، مهما يكن أبو حيان نبيل القصد ، سليم الطويّة . ومن يدرى ، فلعل أبا حيان قال أكثر مما ذكره ، وربما وصل كلامه إلى ابن عباد محرّفاً ومضخّماً .

---

(١) الشمام : بطيخ صغير مخطط بصفرة وخضرة ، وفارسيته الدستنبويهات ، رائحته باردة طيبة . يريد من ضرب المثل الرغبة فى كلام الصاحب والتفكه به

(٢) لا تعد ركيكة (٣) معجم الأدباء ١٥/٣٤ .

(٥) وليس الحسد الذى توهمَ أبو حيان أنه يأكل قلب الصاحب إلا ضرباً من اللوم والأنفة من جرأته فى مجلسه . يقول أبو حيان إن الصاحب كان يحسده ، لأنه « كان شديد الحسد لمن أحسن القول ، وأجاد اللفظ . . . حدثت ليلة بحديث ، فلم يملك نفسه حتى ضحك واستعاده ، ثم قيــــل لى بعده : إنه كان يقول : قاتل الله ابن حيان ، فإنه نَـكِـدٌ ، وإنه ، وإنه . وأكره أن أروى ذمى بقلمى . وكان ذلك كله حسداً وغيظاً بحتاً »[١] .

هجاء أبى حيان للصاحب

وكانت نتيجة هذه الصلة المدخولة أن ترك أبو حيان الصاحب ، وعاد إلى بغداد . ثم ثأر منه ثأراً عنيفاً فى كتابه مثالب الوزيرين ، ويظهر من الصفحات الباقية من هذا الـكتاب فى معجم الأدباء وفى الإمتاع والمؤانسة أن الحملات على ابن عباد أعنف وأشد من الحملة على ابن العميد .

رجع من عند الصاحب ابن عباد إلى بغداد سنة ٣٧٠ هـ كما قال : « بغير زاد ولا راحلة ، ولم يعطنى فى مدة ثلاث سنين درهماً واحداً ، ولا ما قيمته درهم واحداً . ولما نال منى هذا الحرمان الذى قصدنى به وأحفظنى عليه ، وجعلنى من جميع غاشيته فردا ، أخذت أملى فى ذلك بصدق القول عنه ، وسوء الثناء عليه . والبادىء أظلم ، وللأمور أسباب ، والأسباب أسرار ، والغيب لا يُطَّـلع عليه ، ولا قارع لبابه »[٢] .

روَى أن أبا الوفاء المهندس قال له : « إنك تعلم يا أبا حيان أنك انـكفأت

---

(١) معجم الأدباء ١٥/ ٤٤

(٢) معجم الأدباء ١٥/ ٣٢

من الرّى إلى بغداد سنة سبعين (وثلاثمائة) بعد فوت مأمولك من ذى الكفايتين (ابن العميد) — نضر الله وجهه — عابسا على ابن عباد ، مغيظا منه، مقروح الكبد ، لما نالك من الحرمان المرّ والصدّ القبيح ، واللقاء الكريه ، والجفاء الفاحش ، والقَدْع المؤلم ، والمعاملة السيئة ، والتغافل عن الثواب على الخدمة ، وحَبْس الأجرة على النسخ والوراقة ، والتجهم المتوالى عند كل لحظة ولفظة ... »[1] .

وأبو حيان يدافع عن نفسه كثيرا ، كقوله :

« وما ذنبي ياقوم إذ لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلدة من هـذا الذى يَسْتَخْسِنُ هذا الكاب — يريد الصاحب — ويقول : «حتى كأنى قلت كان النظام مأبونا ، أو مات أبو هاشم فى بيت خمار ، أو كان عَبّادٌ معلم صبيان ... [2] ويقول :

« ماذنبي إذا قال لى : هل وصلتَ إلى ابن العميد أبى الفتح ؟ فأقول : نعم ، رأيته ، وحضرت مجلسه ، وشاهدت ما جرى له . وكان من حديثه فيما مُدِح به كذا وكذا ، وفيما تقدم منه كذا وكذا ، وفيما تكلفه من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا وكذا ، ووصل أبا سعيد السيرافى بكذا وكذا ، ووهب لأبى سليمان المنطقى كذا وكذا . فينزوى وجهه ، ويُنْكِرُ حديثه ، وينجذب إلى شىء آخر ليس مما شُرِع فيه . ثم يقول : أعلم أنك انتجعته من

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/ ٤ (٢) معجم الأدباء ١٥/ ٣٥

العراق ، فاقرأ عليّ رسائلك التي توسلت إليه بها ، وأسهبتَ مقرظا له فيها ، فأتمانع ، فيأمر ويشدد ، فأقرؤها ، فيتغير ويذهل »[١] .

ويظهر أن أبا حيان قد نسي في ثورة غضبه أنه مَلوم في كثير مما فرط منه في معاملة الصاحب ، ونسي أنه قد عرف الصاحب قبل أن يقصده ، وحضر مجلسه ، وبات عنده سنة ٣٥٨ هـ .

قال أبو حيان : « كنت بالري سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وابن عباد بها مع مؤيد الدولة قد ورد في مهمات وحوائج ، وعُقد لابن عباد مجلس جدل . وكنا نبيت عندي في داره ومعنا الضرير أبو العباس القاضي و … »[٢] .

وهو يتحدث عما دار في مجلس الصاحب سنة ٣٥٨ هـ قبل أن يتصل به ، فنفهم من حديثه أن الصاحب كان رجل جد واستقامة ، وأنه كان يحلم على من يتطاول عليه ، بل يحلم عليه ويكرمه .

ذكر التوحيدي أنه حضر مجلس جدل لابن عباد بالرّي ، وأن ابن عباد « رأى في مجلسه رجلا غريبا صاحب مُرَقّعة ، فأحب أن يعرفه ، ويعرف ماعنده ، فقال له : يا أخ انبسط واستأنس وتكلم ، فلك منا جانب وطيء وشرب مريء ، ولن ترى إلا البر . بم تُشرف؟ فقال : بدّقاق . قال : تدق ماذا ؟ قال : أدق الخصم إذا زاغ عن سبيل الحق . فلما سمع ابن عباد هذا الرد تنكر وعجب ، لأنه فُجىء ببذيئة » .

ولكنه مع ذلك حلم وجمل يحاور الشخص ، وهو لا يزداد إلا تعمية ، فاغتاظ ابن عباد . ثم عزم عليه أن يبيت في داره ، فأبى[٣] .

(١) معجم الأدباء ١٥/٣٦ (٢) معجم الأدباء ٦/٢٠٩
(٣) معجم الأدباء ٦/٢٠٩ — ٢١٢

وسنعرف فى أخلاق أبى حيان أنه كان متوفز الحس ، سريع الانقلاب ، حاد اللسان والقلم .

لذلك نصدق قول ياقوت إن أبا حيان كان قد قصد ابن عباد بالرى ، فلم يُرزَق منه ، فرجع عنه ذامّاً له ، وكان أبو حيان مجبولا على الغرام بثلب الكرام ، فاجتهد فى الغض من ابن عباد ، لكن فضائل ابن عباد كانت تأبى إلا أن تسوقه إلى المدح وإيضاح مكارمه ، فصار ذمه له مدحا ...[1] .

---

(١) معجم الأدباء ٦/١٨٧

صلته بابن سعدان

لقد جرب أبو حيان حظه مع أبي الفتح ابن العميد ، ثم جربه مع الصاحب ابن عباد ، واحترق بالخيبة ، ولم ينل عندهما بعض ما كان يؤمل .

أفما آن للرجل أن يهدأ ، ويزهد فى أمراء عصره ، ويفرغ لأدبه وعلمه ، أو لعبادته وزهده ؟

لا . وكأني به يتخذ من الإخفاق سبيلا إلى أمل جديد، ينوطه بوزير أو كبير .

فما كاد يهجر أبا الفتح ابن العميد حتى اتصل بالصاحب ابن عباد . ثم لم يلبث أن هجر الصاحب ، حتى مدّ الأمل إلى الوزير ابن سعدان .

ابن سعدان :

١ — هو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان ، وزير صمصام الدولة ابن عضد الدولة من سنة ٣٧٣ هـ ثم قتله صمصام الدولة سنة ٣٧٥ هـ [١] .

كان مجلسه حاليا بالحلة من علماء بغداد وأدبائها . وكان طلعة إلى المعرفة كما يتبين من أسئلته الكثيرة المتنوعة لأبي حيان فى كتاب (الإمتاع والمؤانسة) ومن تعقيبه على بعض الأجوبة .

٢ — ويظهر أن صلته بابن سعدان كانت فى أول الأمر ندية مطمئنة . فقد نسخ له كتاب الحيوان للجاحظ ، وألف له رسالة الصداقة ، وسامره بما فى (الإمتاع والمؤانسة) وكان يقص عليه أحيانا بعض الملح والمجون ، وهذا دليل على زوال الكلفة ، وانبساط النفس .

---

(١) ذيل تجارب الأمم ١٠٦

وليس أدل على هذا من أنه طلب من ابن سعدان أن يسمح له بتوجيه الخطاب إليه بالكاف والتاء ، ليتخلص من مزاحمة الكناية ، ومضايقة التعريض ، ليتكلم من غير كلفة ولا هيبة ولا انقباض ، فأذن له[1] .

وهذا الاطمئنان إلى عطف ابن سعدان، أطلق لسانه بالثناء عليه وعلى أخلاقه كرمه ، حتى لقد فضله على أهل عصره كلهم ، في قوله :

« قد شاهدت ناسا في السفر والحضر ، صغارا وكبارا وأوساطا ، فما شاهدت من يدين بالجد ، ويتحلى بالجود ، ويرتدى بالعفو ، ويتأزر بالحلم ، ويمطى بالجزاف ، يفرح بالأضياف ، ويصل الإسعاف بالإسعاف ، والإتحاف بالإتحاف ، غيرك . والله إنك لتهب الدرهم والدينار ، وكأنك غضبان عليهما ، ثم تتجاوز الذهب والفضة إلى الثياب العزيزة والحلم النفيسة والخيل العتاق والمراكب الثقال والغلمان والجوارى »[2]

وكان الذى وصله بابن سعدان صديقه أبو الوفاء المهندس[3] ، لذلك عرف له أبو حيان صنيعه ، وحدث ابن سعدان بفضله عليه فى قوله : أخذ بيدى ، ونظر فى معاشى ، ونشّطنى وبشرنى ، ورعى عهدى . ثم ختم هذا كله بالنعمة الكبرى ، وقلدنى بها القلادة الحسنى ، وشملنى بهذه الخدمة ، وأذاقنى حلاوة هذه المزية ، وأوجهنى عند نظرائى »[4] وهو يقصد بالنعمة الكبرى والوجاهة العظمى صلته بابن سعدان .

٣ — لكن حظ الرجل النكد يأبى إلا أن يلاحقه ، فنجده يشكو من تغافل ابن سعدان عنه ، ويلح فى تذكير أبى الوفاء المهندس بوعود الوزير ، وأن يذكره عنده بالخير ، ويكتب إلى ابن سعدان نفسه مستغيثا ملحفا .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/ ٢٠

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٣/ ٢٢٤

(٣) الإمتاع والمؤانسة ١/ ١٩

(٤) الإمتاع والمؤانسة ١/ ٥٠

قال أبو حيان فى رسالة إلى ابن سعدان ، بعد أن سامره مدة : « كنت وصلت إلى مجلس الوزير ، وفزت بالشرف منه ، وخدمت دولته وعلاه ، وتصرفت من الحديث فى شجونه وفنونه ، كل ذلك فى جدوَى آخذها ، وحظوة أحظى بها ، ومثالة أُحسَدُ عليها . فتقبل ذلك كله ، ووعد عليه خيرا ، فانقلبت إلى أهلى مسرورا بوجه مسفر ومحيا طلق ... ثم حصلت من ذلك الوعد والضمان على بعض تعلات الزمن ، وبقيت محولا بينى وبين إذكاره ، جيران لا أريش ولا أبرى ... ثم وضح العذر المبين ، وذلك أنى رأيت أعباء الوزارة تئود سره ، وتقعب باله . فلما تيقنت ذلك كله أمسكت من إذكاره ، ولكن كان ذلك الإمعان على رغم منى ، لأنى قتلت فى أثنائه بين جنبيّ قلبا مغرور الرجاء ، منزور العزاء ... وأسأل الوزير أن يجنبنى مرارة الخيبة وحسرة الإخفاق وعذاب التسويف »(١)

واستنجد بصديقه أبى الوفاء المهندس ليذكر ابن سعدان بالإنعام عليه : « أيها السيد ، أقصِرْ تأميلى ، وتذكر العهد فى صحبتى ، طالب نفسك بما يقطع حجتى ، دعنى من التعليل الذى لا مَردّ له .

ذكّر الوزير أمرى ، وكرر على أذنه ذكرى ، وابعثه على الإحسان إلى — قلت : الوزير مشغول ، فما أصنع به إذا فرغ ؟ »(٢) .

٤ — لماذا تغافل عنه ابن سعدان ؟

ما الذى غيّر عليه ابن سعدان ، فتشاغل عنه أو تغافل ؟

يظهر أن الدسائس التى كادت له من قبل هى التى كايدته هنا أيضا ، مضافة إلى غفلته عن اللباقة وحسن التصرف فى مباشرة الوزراء .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٣/٢٠٧

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٣/٢٩٦

وفى كتاب (الإمتاع والمؤانسة) ما نستشف منه هذا التعليل .

ذلك أن ابن سعدان كان قد أنس إلى أبى حيان ، وكان يسأله عن بعض ما يخفى عليه من أسرار الساسة والكبراء كابن جبلة الكاتب وابن برمويه[1] وابن شاهويه[2] وابن بهرام[3] وغيرهم[4] .

وقد عرّض بهم جميعا أبو حيان ، وفيهم من يقربهم ابن سعدان كابن شاهويه ، وبهرام بن سعيد .

وبحسبنا قوله فى بعضهم : « كفاك الله عين الحاسدين ، ووقاك كيد المفسدين ، الذين أنعمت عليهم بالأمس على رءوس الأشهاد ، وكانوا كالحصى فجعلتهم كالأطواد ، وهم يكفرون أياديك ، ويوالون أعاديك ، ويتمنون لك ما أرجو الله أن ينزله على أرواحهم »[5] .

ووصف ندماء ابن سعدان وصفا لا يرضيهم ، فى رسالة الصداقة والصديق ، ولكنه ادعى أنه سمع هذا الوصف من زيد بن رفاعة ، وزعم أن زيدا سمعه من ابن سعدان نفسه فى وصف ندمائه ، وهو « كلام يصلح أن يكتب على الأحداق ، ويعرض على أهل الآفاق »[6] ، وخلاصة وصفه :

ا — أبو على عيسى بن زرعة النصرانى مختال بثروته وادعاء الحكمة .

ب — ابن عبيد الكاتب دائم الثرثرة فى الخطابة والبلاغة ، وهو سيء الخلق ذليل يوارى ذله .

---

(١) كاتب والدة صمصام الدولة وممن تآمروا على الإيقاع بابن سعدان وقتله

(٢) وال كبير من ولاة صمصام الدولة وكان يتحكم تحكم الوزراء

(٣) من رجال صمصام الدولة ومن أصدقاء ابن سعدان

(٤) الإمتاع والمؤانسة ١/٢/٤٢ — ٤٨ و ٢/١١٥

(٥) الإمتاع والمؤانسة ٣/٢٢٣ (٦) الصداقة والصديق ٣١

حـ - ابن الحجاج الشاعر جمع بين المهابة والحياء وسخف الشعر .

ى — أبو الوفاء المهندس مؤنس لطيف إلا أن لغته خراسانية .

هـ — مسكويه دميم الخلقة، مهذب الأخلاق، دعىّ فى كل فن، شخصيته فانية فى ذكره للمهلبى وابن العميد .

و — ابن بكر، حلية المجلس، جاهل خفيف الروح قبيح الوجه .

ز — أبو القاسم الأهوازى لا طعم له، كالبصل فى القدر، وكالإصبع الزائد فى اليد .

ح - ابن شاهويه شيخ لا فائدة فيه .

وهو يكتب لصديقه أبى الوفاء المهندس ما كان قد سامر به الوزير[1]، ويعترف صراحة بأن بعضه واجب الإخفاء والستر، لأن عقابه القتل والتمثيل، وهو لهذا يلح على أبى الوفاء أن يبالغ فى كتمانه « وإن كان ذلك يمر بأشياء كثيرة ومختلفة، منها ما يَشِيطُ — يهدر — به الدمَ المحقَّنون، ويُنْزَع من أجله الروح العزيز، ويستصغر معه الصلب، ولا يُقْنَع فيه بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر »[2]

وليس بمستبعد أن يكون هؤلاء كلهم أو بعضهم قد علموا بتطاوله عليهم فى مجلس ابن سعدان، فقبحوه إليه، ووشوا به، وشغلوه عنه .

ثم كانت النهاية أن قتل ابن سعدان سنة ٣٧٥ هـ، بعد أن دبر عبد العزيز ابن يوسف مؤامرة لعزله، وقتله، وتولى الوزارة من بعده لصمصام الدولة، وشاركه فيها ابن برمويه .

(١) طلب أبو الوفاء من أبى حيان أن يكتب له ما سامر به الوزير، فكتبه فى (الإمتاع والمؤانسة)

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/١٢

ولقد نكل ابن يوسف بأعوان ابن سعدان .

فمن البديهى أن يتوقع أبو حيان التنكيل به ، لأنه من رجال الوزير المقتول ، ولأنه كان قد ثلب ابن يوسف وابن برمويه فى مسامراته لابن سعدان[1] ، كقوله : « ابن يوسف أخس خلق الله ، وأنتن الناس ، وأقذر الناس ، لامنظر ولا مخبر ، وكانت أمه مغنية من أهل البيضاء ، وأبوه من أسقاط الناس ، ونشأ مع أشكاله ، ثم إن الزمان نوّه به ، وكذلك يرتفع الساقط إذا ساعده الجد » .

وإذاً فليهرب أبو حيان إلى أن يحدث الله أمرا . وبعد مدة ظهر فى شيراز ، وخالط المتصوفة وعاش معهم ، بعيدا عن سلطان ابن يوسف وابن عباد .

على أن ابن يوسف كان ينقم من أبى حيان شيئا آخر ، هو أنه ثلب ابن عباد ، وابن يوسف كان يمدحه ، ويجله إلى حد الخنوع[2] .

(١) الإمتاع والمؤانسة ٣/٢٢١ ، ١٥٠ و ١/٦٦

(٢) يتيمة الدهر ٢/٩٢

أخـــلاقه

لم يكن أبو حيان مُزَوّدا بأخلاق عالية تَعْدِل علمه وأدبه . ولو أنه كان كذلك لصار نادرة فى دهره ، ومثلا عاليا فى عصره وبعد عصره . لكن الرجل كان فى أخلاقه بشرا عاديّا ، يعتريه الضعف أكثر مما تعتريه القوة ، ويقع فى الخطأ أكثر مما يقع على الصواب .

— ١ —

فهو كما ذكر ياقوت « سخيف اللسان ، قليل الرضا عنـــد الإساءة إليه والإحسان ، الذمّ شأنه ، والثَّلْبُ دُكانه . وكان مع ذلك محدودا مُحارَفا[1] يتشكّى صَرْفَ زمانه ، ويبكى فى تصانيفه على حرمانه »[2] .

ولا سبيل لتفنيد ما قاله ياقوت ، فقد كان أبو حيان عيابا سليط اللسان ، ونحن نستنبط ذلك من كلامه .

فقد حكى عن نفسه فى كتابه (المحاضرات) : كنتُ بحضرة أبى سعيـــد السيرافىّ ، فوجدت بخطه على ظهر كتاب الأصمعى فى شواذ التفسير — وكان بين يديه — فأخذته ونظرت ، قال : ذم أعرابى رجلا فقال : ليس له أولٌ يُحْمل عليه ، ولا آخر يُرْجع إليه ، ولا عقل يزكو به عاقل لديه . وأنشد :

حسبتُك إنسانا على غير خِبْرة ... فكشّفتَ عن كلبا كَسبٌ على عظمِ
لحىَ الله رأيا قاد نحـــوك همتى ... فأعقَبَنى طولَ القـــام على الذم

(١) محدود : محارف : محروم
(٢) معجم الأدباء ١٥/٦

فنقلت هذا .

فقال لى : يا أبا حيان : ما الذى كنت تكتب ؟

فقلت : الحكاية التى على ظهر هذا الكتاب . فأخذها وتأملها .

وقال : تأبى إلا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس .

فقلت : أدام الله الإمتاع ، شغل كل ناس بما هو مبتلى به مدفوع إليه »[1] .

فنحن نراه هنا معجبا بذم الأعرابي نثره وشعره ، ونجده ينقل هذا الذم ، ونرى السيرافى يصارحه بأنه دءوب على الاشتغال بالقدح وثلب الناس ؛ ثم نجد أبا حيان لا يرد عن نفسه هذا الوصف ، ولا يخجل منه ، بل يوافقه ويستديمه ويبرره بأنه نوع من المتعة ، وبأن كل إنسان مشغول بما ركب فى طبعه .

وقد ذكرنا نبذا من هجائه لابن عباد وكثير من رجال ابن سعدان فى تحليل كتبه .

ولم يسلم من قوارص كله حتى الذين أحسنوا إليه كالمدلجى .

— ٣ —

وكان طماعا شديد الرغبة إلى عطاء الوزراء ، وهذا هو السبب فى صلته بابن العميد وابن عباد وابن سعدان وغيرهم .

وقد عرفنا أنه هجا ابن العميد وابن عباد فى كتاب كامل ؛ لأنهما لم ينيلاه ما أراد . وعرفنا أنه طلب من ابن سعدان صراحة وفى إلحاح ، وذكر أبا الوفاء المهندس بوعود الوزير ، وأراده أن يذكر الوزير بها .

وكان يستحسن العطاء الكثير وإن لم يكن له ،

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٨

قال فى كتاب مثالب الوزيرين :

جرى بينى وبين أبى على مسكويه شىء ، قال لى مرة : أما ترى إلى خطأ صاحبنا — يعنى ابن العميد — فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة ؟ لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق .

فقلت بعد ما أطال الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ ، أسألك عن شىء واحد ، فاصْدُقْ ، فإنه لا مَدَبّ للكذب بينى وبينك . لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه ، أكنت تَخَيَّلُه فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا ، أو جاهلا بحق المال ؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل ، وليته أربى عليه ؟ فإن كان الذى تسمع على حقيقة فاعلم أن الذى يَرُدُّ ويَزِيد مقالك إنما هو الحسد أو شىء آخر من جنسه ، وأنت تدعى الحكمة ، وتتكلف الأخلاق ، وتزيف الزائف ، وتختار منها المختار ، فافطَنْ لأمرك ، وشرك »[1] .

ولقد كان أبو حيان يستطيع أن يعيش من الوراقة ومن العلم ، ويترفع عن التأميل فى وزراء عصره ، وكانت له أسوة فى كثير من أصدقائه ومخالطيه من العلماء والأدباء ، فقد كان كثير منهم محروما ، لكن أبا حيان لم يتأس بهم ، ولم ينظر إلى شظف حياتهم ، وإنما مدّ بصره إلى نعمة رآها على غيرهم . ولا شك أن أبا حيان كان يستريح ويريح لو أنه نظر إلى حال أستاذه أبى سليمان المنطقى الذى عجز عن شراء طعامه ، أو إلى صديقه ابن يعيش الرقى الذى كان ظاهر الخصاصة[2] . أو إلى أبى بكر القومسى الذى وصفه أبو حيان بأنه كان بحرا عجّاجا ، وسراجا وهّاجا ، وكان من الضر والفاقة بمنزلة شديدة[3] وغير هؤلاء كثير حدثنا أبو حيان نفسه عن بؤسهم .

(١) معجم الأدباء ١٥/١٥

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/١٠٥ (٣) معجم الأدباء ١٥/١٢

— ٣ —

وليته وقف عند حد الطمع ، فأمّل واشتقاق وتطلّع ، ولم يتدل إلى حد الخنوع الذى ما كان يليق بمثله ، بل إنه أذل نفسه أشنع الذل ، ونسى عزته أيما نسيان ، وكان لحوحا فى طلبه ، وصبورا على طول الرجاء حيث يجب طرح الرجاء .

وكتبه تنطق بهذا كله .

ففى رسالته إلى أبى الفتح ابن العميد ، التى كتبها له قبل وصوله إليه ، تصاغر واستجداء صريح .

منها قوله : لما رأيت شبابى هرما بالفقر ، وفقرى غنيا بالقناعة ، وقناعتى عجزا عند أهل التحصيل ، مددتُ إلى الزمان أطلب إليه مكانى فيه وموضعى منه ، فرأيت طرفه نابيا ... فطمعتُ فى السكوت تجلّدا ، وانتحلت القناعة رياضة ، وادعيت الصبر مستمرا ... حتى لاحت لى غُرة الأستاذ ، فقلت حل بى الويل ، وسال بى السيل . أين أنا عن مَلِك الدنيا ، والفَلَك الدائر بالنعمى ؟

أين أنا من مشرق الخير ومغرب الجميل ؟

أين أنا ممن يرى البخل كفرا صريحا ، والإفضال دِينا صحيحا ؟

أين أنا عن سماء لا تفْتُر عن الهَطلان ، وعن بحر لا يقذف إلا باللؤلؤ والمرجان ؟

لم لا أقصد بلاده ؟ لم لا أقتدح زِناده ؟

لم لا أنتجع جَنابه وأرعى مزاده ؟

لم لا أسكن رَبْعه ؟ لم لا أستدعى نفعه ؟

لِمَ لا أخطب جُوده ، وأهتصر عوده ؟

لِمَ لا أستمطر سحابه ؟ لِمَ لا أستسقي رَبابه ؟

نعم لِمَ لا أنتهي في تقريظ فتى لو كان من الملائكة لكان من المقربين ، ولو كان من الأنبياء لكان من المرسلين ، ولو كان من الخلفاء لكان نعته اللائذ بالله ، أو المنصف في الله ، أو المعتضد بالله ، أو المنتصب لله ، أو الغاضب لله …

أَسْلَخ أديمي فقد حَلِم — فسد — وجدد شبابي فقد هرِم ، وأنطق لساني في اصطناعي ، فقد شردت سحائف النُّجح عند انتجاعي ، ورِشْ عظمي فقد براه الزمان ، واكسُ جلدي فقد عرّاه الحِدْثان[1] …

وكتب إلى أبي الوفاء المهندس رسالة تدلّى فيها بشكواه وتذلل ، كقوله :
« خلصني من التكفف ، أنقذني من لبس الفقر ، أطلقني من قيد الضر ، اشترني بالإحسان ، اعتبدني بالشكر ، اكفني مئونة الغداء والعشاء · إلى متى الكُسيرة اليابسة ، والبُقَيلة الذاوية ، والقميص المرقّع … إلى متى التأدُّم بالخبز والزيتون ؟ قد — والله — بَحّ الحلق ، وتغير الخلق · اجبرني فإني مكسور ، اسقني فإني صدٍ ، أغثني فإني ملهوف … قد أذاني السفر من بلد إلى بلد ، وخذلني الوقوف على باب باب ، ونكرني العارف بي ، وتباعد عني القريب مني »[2]

ولما أعانه أبو الوفاء ، أثنى عليه ثناء مستطابا ، لكنه مزجه بخنوع ومذلة ، كقوله له : « أنا سامع مطيع ، وخادم شكور ، لا أشترى سخطك بكل صفراء وبيضاء[3] في الدنيا .

أنت مولى وأنا عبد ، ومصطنع وأنا صنيعة ، وأنت مُنَشّيء وأنا مُنشأ ، وأنت أول وأنا آخر ، وأنت مأمول وأنا آمل[4] .

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٣٧ (٢) الإمتاع ٣/٢٣٦
(٣) صفراء : ذهب · بيضاء : فضة (٤) الإمتاع ١/٨

وقوله : لا أجحد أياديك القديمة والحديثة ، ولا أنكر نعمتك الكافية الشافية . أأنسى أياديك وهي طوق رقبتي ، وتجاه عيني ، وحشو نفسي ، وراحة حامي ، وزاد حياتي ، ومادة روحي[1] ؟

وقوله عنه لابن سعدان : أخذ بيدي ، ونظر في معاشي ونشطني وبشرني ، ورعى عهدي ، ثم ختم هذا كله بالنعمة الكبرى ، وقلدني بها القلادة الحسنى ، وشملني بهذه الخدمة ، وأذاقني حلاوة هذه المزية ، وأوجهني عند نظرائي[2] .

وقال في مقدمة رسالته العلوم يخاطب أهل فارس :

لم أرد بلادكم من العراق مباهيا لكم ، ولا حضرت مجالسكم طاعنا فيكم ، ولا تأخرت منكم متطاولا عليكم ، ولا تتبعت مساويكم شامتا بكم ، بل وردت مستفيدا ومفيدا ، ومباحثا ومستزيدا .

فما هذا الذي بلغني عن بعضكم ، على حسن توفرى على صغيركم وكبيركم ؟ أما إنه لو أنصف لعلم ، أني إلى تسمحه أحوج مني إلى تصفحه ، وهو بمجاملته أسعد مني بمجادلته ، وأنا لإحسانه أشكر مني لامتحانه[3] . . .

وهو يصرح بأن عزة النفس حسنة ، إلا أنها صعبة ، مالم تعتمد على مال يجددها .

قال لصديقه أبي الوفاء المهندس .

« المكانة عند الوزراء بكل حول وقوة مخطوبة ، والدنيا حلوة خضرة ، وعذبة

(١) الإمتاع ١/١١

(٢) الإمتاع ١/٥٠

(٣) رسالة العلوم ٢٠١ ملحقة بالصداقة والصديق

نَضِرة ... ولا بد من فتى يعين على الدهر ، ويغنى عن كرام الناس ، فضلا عن لئامهم ، ويذلل قَعودَ الصبر ... والعزلة محمودة ، إلا أنها محتاجة إلى الكفاية ، والقناعة مَزَّة (خمرة لذيذة الطعم) فكهة ولكنها فقيرة إلى البُلْغة ، وصيانة النفس حسنة ، إلا أنها كلفة محرجة ، إن لم تكن لها أداة تُجِدُّها وفاشية (مال كثير) تَمُدُّها[1] » .

ويتحدث فى كتاب المحاضرات أنه قصد هو والنصيبي رجلا من أهل اليسار الكرماء ، فلم تتيسر لهما ملاقاته إلا فى المرة الخامسة عشرة ، لكنه كان فى هذه المرة مشغولا بعزاء فلم يعرفهما ، ولم يجدا سبيلا للاتصال به . وهمّ النصيبي ألا يعود ، فحسّن له العودة أبو حيان . ثم قصداه بعد ذلك أكثر من عشرين مرة ، حتى ملّ النصيبي ، وعزم على طرح الرجاء فى ذلك الرجل[2] .

— ٤ —

على أنه كان فى بعض الأوقات يستسلم إلى اليأس من الناس ، ويستشعر الغنى عما فى أيديهم ، ويدعو الله أن يصون وجهه عن الحاجة إليهم ، والطلب منهم .

فقد ختم رسالة العلوم بقوله :

أستخلف الله منكم وعليكم ، وأستغفره لى ولكم ؛ إنه غفور رحيم ، منوح كريم .

اللهم صُنْ وجهنا باليسار ، ولا تبتذلنا للإقتار ، فنسترزق أهل رزقك ، ونسأل شِرار خلقك ، فنبتلى بحمد من أعطى وذم من منع ، وأنت من دونهم

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/ ١٣

(٢) معجم الأدباء ١٥/ ٤٩

ولىّ الإعطاء ، وبيدك خزائن الأرض والسماء ، ياذا الجلال والإكرام[1] .

وحسد القانع المستغنى عن عطاء الناس ، الذى لم يضطر إلى شكوى لئيم أو مدح كريم . قال فى كتاب مثالب الوزيرين :

وإنى لأحسد الذى يقول :

أُمِــدُّ خمسين حولا مالىَّ يدٌ   لأجنبى ولا فضلٌ لذى رَحِم

الحمد لله شكرا قد قنِعْتُ فلا   أشكو لئيما ولا أُطرِى أخا كرم

لأنى كنت أتمنى أن أكونه ، ولكن العجز غالب ، لأنه مبذور فى الطينة . ولقد أحسن الآخر حين قال :

ضَيَّقَ العُذرِ فى الضراعة . إنا   لو قَنِعْنا بقَسْمنا لكفانا

مالنا نعبد العبادَ إذا كا   ن إلى الله فقرنا وغنانا[2]

ومن هنا تعلم أنه كان طُلَعَةً إلى المال ، توّاقا إلى أن ينال من عطاء الأغنياء ما يكفل له بحبوحة العيش ، فلما حرموه سلط عليهم لسانه تارة وقلمه تارة ، ونظر إلى الناس جميعا نظرة الحاقد الحانق .

ولقد كان فى غنية عن ذلك كله ، لو أنه قنع بما تدره عليه الوراقة والنسخ ، وانصرف إلى العلم والأدب على أنهما غاية لا وسيلة .

— ٥ —

وهو إلى هذا غُفْل فى معاملة الوزراء ، ضعيف الخبرة بما يحتاج إليه مخالطهم من السياسة واللباقة والدهاء ، كما بينا فى صلته بابن عباد وابن سعدان . لهذا ضاق بالإقامة فى رحاب ابن العميد وابن عباد وابن سعدان .

(١) العلوم ٢٠٨ ملحقة بالصداقة والصديق

(٢) معجم الأدباء ١٥/ ٤٨

وهو يذكر ما قاله صديقه أبو الوفاء المهندس ، فنجد فيه وصفه بالغرارة والبلاهة والغرور وتجاوز الحد .

سجّل أبو حيان أن صديقه أبا الوفاء قال له : أفكان من حق عليك أنك تخلو بالوزير — أدام الله أيامه — ليالى متتابعة ومختلفة ، فتحدثه بما تحب وتريد ، وتلقى إليه ما تشاء وتختار ، وتكتب إليه الرقعة بعد الرقعة . ولعلك فى عُرْض ذلك تعدو طَوْرك بالتشدُّق وتجُوز حدك بالاستحقار ، وتتطاول إلى ما ليس لك ، وتَغْلَط فى نفسك ، وتَنْسَى زلة العالم ، وسقطة المتحرّى ، وخَجْلة الواثق .

هذا وأنت غِرٌّ لاهيئة لك فى لقاء الكبراء ومحاورة الوزراء .

وهذه حال تحتاج فيها إلى عادة غير عادتك ، وإلى مِران سوى مرانك ، ولِبسة لاتشبه لِبستك ...

والعجب أنك مع هذه الخِلّة — العيب والنقص — تظن أنها مطوية عنى ، وخافية دونى ، وأنك قد بلغت الغاية ، وادع القلب ، وملكت المكانة ثانى العِنان . وقد انقطعت حاجتك عنى وعمن هو دُونى ، ووقع الغِنى عن جاهى وكلامى ولطفى وتوصيلى . وجهلت أن من قَدَر على وُصولك ، يقدر على فُصولك — خروجك من عند الوزير — وأن من صَعِد بك حين أراد ، ينزل بك إذا شاء ، وأن من يُحْسِن فلا يُشْكَر ، يجتهد فى الاقتصاد حتى يُعْذر .

وبعد ، فما أطيل . ولعل لهب الوَجدة يزداد ، ولسان الغيظ يَغْلو ، وطباع الإنسان تَحْتَدُّ ، والندم على ما أسلفتُ من الجميل يتضاعف ، ولستَ

فأنت أول من نَقَّ فَمَقَّ ، ولا أنا أول من جُنِي فَنَقّ[1] ، وهذا فراقٌ بيني وبينك ، وآخر كلامي معك ، وفاتحة يأسي منك ... إلا أن تطالعني بِطلْع جميع ما تحاور تما وتجاذ بتما هُدْبَ الحديث عليه ، وتصرفتما في هزله وجِدّه ، وخيره وشره ، وطيّبه وخبيثه ، وباديه ومكتومه ، حتى كأني كنت شاهدا معكما ، ورقيبا عليكما ، أو متوسطا بينكما .

ومتى لم تفعل هذا فانتظر عُقْبيَ استيحاشي منك ، وتوقع قلةَ غفُولي عنك ، وكأني بك وقد أصبحت حَرّانَ حيران يا أباحيان ، تأكل إصبعك أسفا ، وتزدرد ريقك لَهَفاً ، على مافاتك من الحَوْطة لنفسك ، والنظر في يومك لغدك ، والأخذ بالوثيقة في أمرك »[2]

— ٦ —

كان شديد الخوف ، ضعيف العزيمة ، كثير الهيبة ، ومن هنا ملّ الوراقة والنسخ ، وتطلع إلى كسب أيسر وأسهل ، ولم يتجه إلى الارتزاق من عمل آخر يشعر فيه بالحرية والكرامة ، على كثرة ما مُنِيَ به من تصنويح الأمل .

سأله الوزير ابن سعدان : لم لا تداخل صاحبَ ديوان ، ولم ترضى لنفسك بهذا اللّبوس ؟

فقال : أنا رجل حُبُّ السلامة غالبٌ عليّ ، والقناعه بالطفيف محبوبة عندي .

فقال الوزير : كنيت عن الكسل بحب السلامة ، وعن الفسولة بالرضا باليسير .

(١) نق الضفدع : صاح . والمراد هنا التحدث بما أسداه من النوم وما يلقاه من الكفران

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/٥

فقال أبو حيان : إذا كنت لا أصل إلى السلامة إلا بالفسولة ، ولا أتطعم الراحة إلا بالكسل ، فرحبا بهما[1] .

— ٧ —

وقد أسرف فى التسخط والشكوى ، وذم أهل زمانه ، وعابهم بنقص الدين والبخل وضعف المروءة[2] .

من ذلك قوله :

« فقد أصبحنا فى هذه الدار — الدنيا — وكأنما هى قاع أملس ، أو أثر أخرس ، لم يبق من يُرضَى هَدْيه ، أو يقتبس علمه ، أو يخطب عُرْفه ، أو يُقْتَنَى جوده ، أو يستفاد لفظه ... وما ذاك إلا لتَنَكُّل القلوب ، ودَخَل الأعراق ، وخُلوقة الدين ، وغلبة القِحة ، وسقوط الهيبة ، والتبجح بالفحشاء والمنكر[3] » .

ومنه قوله فى مقدمة رسالة الصداقة والصديق :

ومن العجيب والبديع أنا كتبنا هذه الحروف ، على ما فى النفس من الحُرَق والأسف والحسرة والغيظ والكمد والوَمَد[4] .

وكأنى بغيرك إذا قرأها تقبضت نفسه عنها ، وأَمَرّ نقده عليها ، وأنكر علىّ التطويل والتهويل بها . وإنما أشرتُ بهذا إلى غيرك ، لأنك تَبْسُط من العذر مالا يجود به سواك .

وذاك لعلمك بحالى ، واطّلاعك على دِخْلتى ، واستمرارى على هذا الإنفاض .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/١٠٤
(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/١٦ — ١٨
(٣) المقابسات ١١٧
(٤) الومد : الغضب

والعَوَز اللذين نقضا قوّتى ، ونكثا مرّتى[1] ، وأفسدا حياتى ، وقرنانى بالأسى ، وحجبانى عن الأسى[2] ، لأنى فقدتُ كل مؤنس وصاحب، ومُرافق مشفق . والله لربما صليت فى الجامع فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى . فإن اتفق فبقّال أو عصّار أو ندّاف أو قصّاب ، ومن إذا وقف إلى جانبى أسدرنى[3] بصُنانه ، وأسكرنى بنتنه . فقد أمسيتُ غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنسا بالوحشة ، قانعا بالوحدة ، معتادا للصمت ، ملازما للحيرة ، محتملا للأذى ، يائسا من جميع من ترى ، متوقعا لما لابد من حلوله . فشمس العمر على شفا ، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجمُ العيش إلى أفول، وظلّ التلبّث إلى قلوص[4] » .

وذكر فى كتابه (المحاضرات) ألوانا من بؤس الأدباء وشكاياتهم ، منها ما أنشده إياه أبو بكر القُومسى الفيلسوف ، ووصفه بأنه كان من الضُّر والفاقة ومقاساة الشدة والإضاقة بمنزلة عظيمة ، ونقل عن أبى بكر وصفه لنحسه بقوله : ما ظننتُ أن الدنيا ونكدها تبلغ من إنسان ما بلغ منى ، إن قصدتُ دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها ، وإن خرجتُ إلى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلدا أملس ، ثم أنشده قصيدة للمطوى تصور البؤس والنحس ، سجّلها أبو حيان .

ثم ختم أبو حيان حديثه مع أبى بكر بقوله : ما أعرف لك شريكا فيما أنت عليه ، وتتقلب فيه ، وتقاسيه ، سواى . ولقد استولى علىّ الحُرف (الحرمان) وتمكن منى نكد الزمان ، إلى الحد الذى لا أسترزق مع صحة نقلى ، وتقييد خطى ، وتزويق نسخى وسلامته من التصحيف والتحريف ، بمثل ما يسترزق

---

(١) قوة الخلق وشدته

(٢) الأسى : بفتح الهمز الحزن . والأسى بضم الهمز جمع أسوة وهى ما يتصبر به الحزين

(٣) أسدرنى : ضايقنى (٤) الصداقة والصديق ٦

البليد الذى يَنْسَخ النَّسْخَ (يزيل المكتوب) ويَمْسَخ الأصـــل والفرع .
وقصدت ابن عبادٍ بأمل فسيح وصدر رحيب ، فقدم إلىّ رسائله فى ثلاثين مجلدة،
على أن أنسخها له . فقلت : نسخُ مثله يأتى على العمر والبصر — والوراقة كانت
موجودة ببغداد — فأخذ فى نفسه علىّ من ذلك ، وما فزتُ بطائل من جهته »[1] .

وقد تنبه مسكويه إلى أن أبا حيان كثير الشكوى ، ونصحه بالإقلاع عن
شكاياته من الزمان والخلان فى قوله : « قرأت مسائلك التى سألتنى أجوبتها ،
فى رسالتك التى بدأت بها فشكوت فيها الزمان ، واستبطأت بها الإخوان ،
فوجدتك تشكو الداء القديم والمرض المقيم . فانظر — حفظك الله — إلى
كثرة الباكين حولك وتأسّ ، أو إلى الصابرين معك وتسلّ ، فلعمر أبيك إنما
تشكو إلى شاك ، وتبكى على باك ... وبعد فإنى أرى لك إذا أحببت معايشة
الناس ومخالطتهم أن تسامح أخاك ... ولا تعود عشيرك وجليسك استماع شكواك .
استعذ بالله من الشيطان ووساوسه ، ومن دنس الجهل وملابسه ، واستعن بالله
يعنك ، أو استكفه يكفك »[2] ..

— ٨ —

ويتبين لنا من أقوال أبى حيان وأفعاله أنه رام العلم والأدب وسيلة لا غاية ،
فأراد بأدبه أن يغتنى ، وأراد بأدبه أن يكون وجيها بين الناس ، فلما يئس من
هذا وذاك أحرق كتبه ، غير آسف عليها ، ولا نادم على ما فعل ، كما سنبين .

وهذا واضح فى كتابه لابن العميد الذى قدمنا فقرات منه .

وواضح فى ثنائه على أبى الوفاء المهندس لأنه أوصله بالوزير ابن سعدان

(١) معجم الأدباء ١٥/١٠ (٢) الهوامل والشوامل ١

بقوله : « وشملنى بهذه الخدمة ، وأذاقنى حلاوة هذه المزية ، وأوجهنى عند نظرائى »[١] .

وكذلك فى قوله إنه أحرق كتبه لقلة جدواها ، وضنا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته ، ولأنها لم تنله المثالة والرياسة بين الناس[٢] .

وفى قوله :

هكذا حفظت عن أئمة هذا الشأن ، ومالى منه إلا حظ الرواية إن وقعت موقعها منك ، وحلت محلها عندك . وإن تكن الأخرى فما أقدرك على رد ما أروى ، وإفساد ما أقول ، حتى يصير ما جمعته ونقلته وكددت نفسى فيه خاملا فى عينك ، ومهين القدر بحكمك . وغير هذا أجمل بمطبوع على الخير ، ومغذوّ بالأدب ، وناشىء مع البر ، وجارٍ على عرق الطهارة[٣] .

وأعلن فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) زهده فى العلم ، لأنه مشغول بما هو أهم منه ، وهو طلب القوت « على أن الزهد فى هذا الشأن قد وضع عنا وعن غيرنا مؤونة الخوض فيه ، والتّمنّى به ، والتوفر عليه ، وتقديمه على ما هو أهم منه ، أعنى طلب القوت الذى ليس إليه سبيل إلا ببيع الدّين ، وإخلاق المروءة ، وإراقة ماء الوجه ، وكد البدن ، وتجرع الأسى ، ومقاساة الحُرْفة ، ومضّ الحرمان ، والصبر على ألوان وألون[٤] .

— ٩ —

ومن عجب أن أبا حيان جرّح أكثر معاصريه ، حتى الذين وصلته بهم صلات علم أو مودة .

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ٥٠
(٢) معجم الأدباء ١٥/ ١٨
(٣) البصائر والذخائر ١٣٥
(٤) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ٤٣

فهل كان متجنيا عليهم حينما جرحهم ؟

أو كان منصفا فى حكمه ، يذكر محاسنهم ومساوئهم ؟

كلا الأمرين محتمل . وإن كان الخلق العام لأبى حيان يرجح أنه كان إذا غضب نسى المودة ، واستل قلمه للثلب .

من ذلك أنه كان وثيق الصلة بابن مسكويه[1] ، وراسله فى أسئلة شتى ، هى التى جمعها وجمع إجاباتها فى كتاب (الهوامل والشوامل) . وكان عظيم الثقة فى علمه ، بدليل قوله فى رسالة إليه : « وقد جهزت المسألة إليك ، وأنت المدخر لغريب العلم ، ومكنون الحكمة . فإن تفضلت بالجواب ، وإلا عرضتُ عليك ما قلتُ للسائل ، ورويتُ ما دار بينى وبين المجادل ، فإن كان سديدا عرّفتنيه ، وإن كان ضعيفا نصحتنى فيه ، فالعلم بعيد الساحل ، عميق الغور ، شديد الموج »[2] .

لكنه عاد بعد ذلك فقدح فيه ، إذ اتهمه بالعىّ وبالبخل ، وتضيية الوقت فى طلب الكيمياء ، فى قوله :

أما مسكويه ففقير بين أغنياء ، وعَيِيٌّ بين أبيناء ، لأنه شاذ ... ولقد قطن العامرى[3] الرّىّ خمس سنين ، ودرس وأملى وصنف وروى فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ، ولا وعى مسألة ، حتى كأنه بينه وبينه سد . ولقد

(١) كان خازناً على مكتبة ابن العميد ثم على خزانة كتب عضد الدولة البويهى . ثم وزر لبهاء الدولة البويهى

(٢) الهوامل والشوامل ٣١٥

(٣) أبو الحسن محمد بن يوسف العامرى فيلسوف معاصر لابن سينا ، وكانت بينهما مباحثات فى الفلسفة ، كان متبحراً فى الفلسفة اليونانية مكباً على كتب أرسطو ، وله على بعضها شرح . وقد اتصل بابن العميد وقرآ معاً عدة كتب . توفى سنة ٣٨٠

تجرع على هذا التوانى الصاب والعلقم ، ومضغ بفمه حنظل الندامة فى نفسه ، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه ، حين لم ينفع ذلك كله .

وبعد فهو ذكى حسن الشعر نقى اللفظ ... مع كلفه بالكيمياء ، واحتراقه فى البخل بالدانق والقيراط والكِسْرة والخرقة . نعوذ بالله من مدح الجود باللسان ، وإيثار الشح بالفعل ، وتمجيد الكرم بالقول ، ومفارقته بالعمل »[1] .

كذلك فعل مع ابن العميد ، إذ كتب له رسالة قبل أن يتصل به ، أسرف فيها فى الثناء والخضوع والاستجداء ، وبالغ فى ثنائه وتغالى[2] . ثم انقلب عليه، وذمه فى كتاب مثالب الوزيرين .

وصنع هذا الصنيع أو ما يشبهه مع المدلجى ، الذى اتصل به وألف له كتاب المحاضرات ، واعترف بأن المدلجى كافأه مكافأة مضاعفة . لكنه قال فيه فيما بعد : « فأنجزلى ما وعد، ووفى بما شرط ، وكان ينفق عليه سوق العلم ، مع جنون كان يعتريه ، ويتخبط فى أكثر أوقاته فيه »[3] .

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٣٥
(٢) معجم الأدباء ١٥/٣٧ — ٤٤
(٣) معجم الأدباء ١٥/١٤ — ١٦

دينـــه

هذا الرجل الذى لم يجد من رفاهة الحياة ما يلائم علمه وأدبه ، ولم يلق من رعاية الوزراء والأمراء فى عصره بعض ما لقى من هم أقل منه علماً وأدباً ، فقضى حياته يائساً ناقماً ، هذا الرجل قد اتُّهم فى عقيدته ، وهى تهمة أشد إيلاماً من البؤس ، وأقسى نكالا من الفقر ؛ لأنها تبغضه إلى الخاصة وإلى العامة ، وتلقى على إنتاجه غباراً كثيفاً من الشك ، وتكاد تطوح بمكانته الأدبية والعلمية ، فى عصر لم يكن يحتمل من الزندقة والإلحاد ما يوصف بأنه زندقة وإلحاد ، وإن كان بريئا .

اتهامه بالزندقة :

ربما كان أول من اتهمه بالزندقة الكاتب اللغوي الأديب ابن فارس المتوفى فى القرن الرابع ، فى كتابه الفريدة والخريدة ، فقد نقل عنه قوله : كان أبو حيان قليل الدين والورع عن القذف ، والمجاهرة بالبهتان ، تعرض لأمور جسام من القدح فى الشريعة والقول بالتعطيل .

ولقد وقف سيدنا الصاحب ابن عباد كافى الكفاة على بعض ما كان يُدْخله ويخفيه من سوء الاعتقاد ، فطلبه ليقتله ، فهرب والتجأ إلى أعدائه ، ونفق عليهم بزخرفه وإفكه ، ثم عثروا على جميع دِخلته ، وسوء عقيدته ، وما يبطنه من الإلحاد ، ويرومه فى الإسلام من الفساد ، وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبائح ، ويضيفه إلى السلف الصالح من الفضائح ، فطلبه الوزير المهلبى ، فاستتر منه ، ومات فى الاستتار ، وأراح الله منه ، ولم يؤثر عنه إلا مثلبة أو مخزية »[1] .

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٤/٢

ثم جاء ابن الجوزى (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) فقال : زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الراوندى والتوحيدى وأبو العلاء المعرى . وشرهم على الإسلام أبو حيان ، لأنهما صرّحا وهو مُجَمْجِمٌ ، ولم يصرح[1] .

ثم ردد الذهبي (المتوفى سنة ٧٤٨ هـ) هذه التهمة ، ونقل ما ذكره ابن فارس وابن الجوزى ، وزاد عليه قوله إن أبا حيان كان عدواً لله خبيثاً ، سيء الاعتقاد[2]

وجرت دائرة المعارف على أنه نفى لزندقته . قال مرجليوث :

« نفاه المهلبي المتوفى سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣) من بغداد — وكان يعيش فيها من الكتابة — لزندقته فى آرائه التى أوردها فى مصنفات له فُقدت[3] .

ووافق هؤلاء على النفى الأستاذ محمد كرد على ، فقال إن الصاحب اتهم التوحيدى بالزندقة ، ففر منه ، وطلبه الوزير المهلبى ليقتله ، فهرب إلى ديار بكر[4]

٢ — ولكن علماء آخرين شهدوا له بسلامة العقيدة ، وصحة الدين .

فهو فى رأى ياقوت صوفىّ السمتِ والهيئة ، متعبد ، والناس على ثقة من دينه[5] .

وابن النجار يصفه بأنه كان فقيراً صابراً متديناً صحيح العقيدة[6] .

والسبكى يدافع عنه بقوله : « لم يثبت عندى إلى الآن من حال أبى حيان ما يوجب الوقيعة فيه . ووقفت على كثير من كلامه ، فلم أجد فيه إلا ما يدل على

(١) بغية الوعاة للسيوطى ٣٤٨ وطبقات الشافعية للسبكى ٤/٢

(٢) ميزان الاعتدال للذهبي ٣/٥ ٣٥ وطبقات الشافعية ٤/٢

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١/٣٣٣

(٤) أمراء البيان ٢/٤٩٦

(٥) معجم الأدباء ١٥/٥ (٦) طبقات الشافعية للسبكى ٤/٢

أنه كان قوى النفس، مزدريا بأهل عصره، ولا يوجب هذا القدر أن يُنال منه هذا النيل: وسئل الوالد — رحمه الله — عنه فأجاب بقريب مما أقول [1].

وقد أرجع السبكى حملة الذهبى على أبى حيان إلى محاكاته لما قاله ابن فارس وإلى ما قاله ابن الجوزى، وإلى أمر ثالث هو بغضه الشديد للمتصوفة [2].

ولقد كان أبو حيان صوفياً، بل إنه عند الفرس علم من أعلام المتصوفة. قال عنه أبو العباس أحمد زركوب: «إنه الإمام الموحِّد، العالم الواسع العلم، ليس له شبيه فى المكاشفات الإلهية، والدراية بالتوحيد» [3].

٣ — ولنا على اتهامه بالزندقة، وزعمهم أنه نفى بسببها عدة ردود:

(أ) المفهوم من كلام ابن فارس أن الصاحب ابن عباد طلبه ليقتله، ففر منه، ثم تعقبه الوزير المهلبى [4]، فاستتر منه حتى مات فى الاستتار. وهذا كلام تعوزه الصحة، لأن أبا حيان — كما بينا فى صلته بابن عباد — تركه سنة ٣٧٠ هـ والوزير المهلبى توفى سنة ٣٥٢ هـ [5] فكيف يتفق هذا؟ لقد اتصل أبو حيان بالصاحب ثم تركه بعد ثمانية عشر عاماً من وفاة الوزير المهلبى الذى قيل إنه تعقبه ليقتله.

(ب) لم يشر أبو حيان — على دقته فى وصف الأشخاص والأحوال ولا سيما حالته — إلى أن ابن عباد فكر فى قتله، أو أوعز بحبسه، ولو أن شيئاً

---

(١) طبقات الشافعية ٤/٢ (٢) طبقات الشافعية للسبكى ٤/٢

(٣) شيراز نامه ١٠٨ (٤) الحسن بن محمد بن عبد الله بن هارون من ولد المهلب بن أبى صفرة. كان كاتب معز الدولة البويهى ثم وزيره، وكان أديباً ظريفاً. توفى سنة ٣٥٢ هـ (فوات الوفيات ١/١٣١)

(٥) فوات الوفيات ١/١٣١

من هذا حدث لذكره ، على عادته فى تفصيل الأحداث ، والتشنيع على ابن عباد » ووصف ما لقى من حرمان وخيبة فى صلته به .

(ج) يحملنا على الشك فيما زعمه ابن فارس من نسبة الزندقة إلى أبى حيان ، ومن نسبة التفكير فى قتل ابن عباد له ، أن ابن فارس كان أستاذاً لابن عباد قبل أن يلى الوزارة ، وكان صديقاً له لما تولاها[1] . وكان أستاذاً لأبى الفتح ابن العميد[2] . وقد هجا أبو حيان ابن عباد وابن العميد ، فمن المرجح أن ابن فارس أراد أن يشوه سمعته ، ويثأر منه ، فألصق به تهمة الزندقة ، وأراد أن ينسب إلى ابن عباد الغيرة على الدين ، فزعم أنه همّ بقتل أبى حيان ، لكنه هرب منه .

(د) كان ابن فارس معاصراً لأبى حيان ، وقد ذمه أبو حيان ذماً شنيعاً ، وتنقصه فى مجلس ابن سعدان ، بقوله : « إنه شيخ فيه محاسن ومساوىء ، إلا أن الرجحان لما يذم به ، لا لما يحمد عليه . فمن ذلك أن له خبرة بالتصوف ، وهناك أيضاً قسط من العلم بأوائل الهندسة ، وتشبه بأصحاب البلاغة ، إلا أن هذا كله مردود بالرعونة والمكر والإيهام والخسة والكذب والغيبة ...[3]

(هـ) ابن فارس الذى يسند إليه اتهام أبى حيان بالزندقة والموت فى الاستتار قد مات قبل أبى حيـــان . وسواء أكانت وفاة ابن فارس سنة ٣٦٠ أو ٣٦٩ هـ أو ٣٧٥ هـ أو ٣٩٠ أو ٣٩٥[4] فإنها كانت قبل وفاة أبى حيان .

---

(١) وفيات الأعيان ١/ ٧٥ ومعجم الأدباء ٤/ ٨٣

(٢) معجم الأدباء ٦/ ٢٣١ ، و ٨/ ٢٣٢ ، ١٤/ ٢٩٢

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٣/ ١٠٥

(٤) معجم الأدباء وهامشه ٤/ ٨٠ ورجح ياقوت أنه مات بعد ٣٩١ هـ

فكيف يقرر وفاة شخص لم يمت بعد؟

وإذا أخذنا بشق رأيه وهو الاتهام بالزندقة ، وذهبنا إلى أن الشق الثانى مدخول عليه ، فإن اتهامه بالتحيز لابن عباد وابن العميد مازال قائماً ، يقدح فى طعنه أبا حيان .

على أنا لا نستبعد أن يكون خصوم أبى حيان هم الذين فعلوا ذلك ، ولكنهم أسندوه إلى ابن فارس ، ليزيدوه قبولا وتثبيتاً فى نفوس سامعيه .

(و) ابن الجوزى — كما ذكر السبكى — متعصب على الصوفية ، مبغض لهم ، لهذا زاد من عنده قوله « وأشدهم على الإسلام أبو حيان ، لأنه مجمجم ولم يصرح » .

وقد وصفه ياقوت بأنه كثير التخليط ، ولهذا لا يعتمد على ما تفرد به[1] .

(ز) إذا وازنا بين أبى حيان وابن الراوندى وأبى العلاء المعرى لم نجد تشابهاً يبيح لابن الجوزى أن يجعله أشد الثلاثة ضرراً بالإسلام .

أما ابن الراوندى فلا جدال فى زندقته وكفره ، لأنه زعم أن فى كلام أكثم ابن صيفى ما هو أحسن من بعض القرآن ، وادعى أن القرآن غير معجز ، بأن المسلمين احتجوا للنبوة نبيهم بالقرآن الذى تحدى به النبى ، فلم يقدر العرب على معارضته ، فيقال لهم : لو ادعى مدّع لمن تقدم من الفلاسفة مثل دعواكم فى القرآن فقال : الدليل على صدق بطليموس أن إقليدس ادعى أن الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه ، لكانت نبوته تثبت[2] .

---

(١) معجم الأدباء ١٧/١٣

(٢) تاريخ أبى الفدا ٢/٢٩٤ وهذه حجة تافهة ساقطة لأنه قد أتى بعد إقليدس من برع أكثر منه وزاد عليه . ولا يزال العلماء يأتون كل يوم بجديد حتى ليعد كتاب إقليدس لا شىء بالنسبة لما يكتبون ، أما القرآن فقد مضت مئات السنين ولا يزال المعجزة الخالدة وسيبقى كذلك أبدا .

وأما أبو العلاء فقد اتهم بالإلحاد ، لبعض آرائه ، ولما قيل إنه عارض القرآن بكتابه الفصول والغايات ، على نسق السور والآيات .

وإن كان مظلوماً فى اتهامه بالمعارضة ، لأن كتابه لا يشير إلى ذلك .

وليس فى كلام أبى حيان ما ينبىء عن زندقة أو إلحاد .

(ح) بل إن فى كلام أبى حيان ما ينقض دعوى خصومه نقضا لا يبقى ولا يذر .

فقد كان يغار على الدين منذ حداثته .

ذكر رأيا لأبى سعيد البسطامى ، ثم عقب عليه بقوله : وكان شديد التهور عظيم المجرفة ، ولم أجد منكرا من أحد حضر ، من أصحابه ومن غير أصحابه . وكنت حينئذ غريبا حديث السن ، فوقدتنى الحمية لله ورسوله عند جهله[1] .

وفى مقدمة البصائر والذخائر دعاء مؤمن متصوف .

وفيه بعد ذلك إقرار صادق بجلال القرآن وإعجازه : « كتاب الله عز وجل ، الذى حارت العقول الناصعة فى رصفه ، وكلّت الألسن البارعة عن وصفه ، لأنه المطمع بظاهره فى نفسه ، والممتنع فى باطنه بنفسه ، الدنى بإفهامه إياك إليك ، والعالى بأسراره غيوبه عليك ، لا يطار بحواشيه ، ولا يُمَلّ من تلاوته ، ولا يُحَسّ بإخلاق جدّته ، كما قال على بن أبى طالب عليه السلام ، ظاهره أنيق ، وباطنه عميق ، ظاهره حكم ، وباطنه علم » .

وفيه تمجيد لأحاديث الرسول : فإنها الشّرك (وسط الطريق الواضح)

---

(١) البصائر والذخائر ٢١٥

الواضح ، والنجم اللائح ، والقائد الناصح ، والعَلَم المنصوب ، والأَمَم المقصود والغاية فى البيان ، والنهاية فى البرهان ، والمَفْزَع عند الخصام ، والقدوة لجميع الأنام »[١] .

وفيه بعد هذا تصوف وحضّ على الثقة فى الله وحده[٢] .

وفى مقدمة كتابه (الإشارات الإلهية) .

اللهم إنا نسألك ما يُسأل ، لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك ، وأفعالنا معك ، وسوالف إحساننا قِبلك ، ولكنْ عن ثقة بكرمك الفائض ، وطمعنا فى رحمتك الواسعة . نعم وعن توحيد لا يشوبه إشراك ، ومعرفة لا يخالطها إنكار . وإن كانت أعمارنا قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة نسألك ألا ترد علينا هذه الثقة بك ، فتشمت بنا من لم يكن له هذه الوسيلة إليك . يا حافظ الأسرار ، ويا مُسْبِل الأستار ، ويا واهب الأعمار ، ويا منشىء الأخبار ، ويا مولج الليل فى النهار ، ويا محصيا فى الأخبار ، ويا مدارى الأشرار ، ويا منقذ الأبرار من النار والعار ، عد علينا بصفحك عن زلاتنا ، وانعشنا عند تتابع صرعاتنا ، وحطة حالنا معك فى اختلاف سكراتنا وصحواتنا ، وكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا ، لأنك أولى بنا . .

وإذا خفنا منك فأبْرِح[٣] خوفنا منك برجائنا فيك ، وإذا غلب علينا يأسنا منك فتلقّه بالأمل فيك . .

ومن رسالة الإشارات الإلهية :

---

(١) البصائر والذخائر ٧ (٢) المرجع نفسه ١٠
(٣) أبرح : أزل

حرام على قلب استنار بنور الله أن يفكر فى غير عظمة الله . حرام على لسان تعود ذكر الله أن يذكر غير الله . حرام على نفس طهرت من أدناس الدنيا أن تدنس بشىء من مخالفة الله . حرام على عين نظرت إلى مملكة الله أن تحدق إلى غير الله . حرام على كبد ابتلت بالثقة بالله أن تظمأ إلى غير الله . حرام على من لم ير الخير إلا من الله أن يجدد طمعا فى غير الله ... حرام على من تلذذ بمناجاة الله أن يناجى غير الله . حرام على من وقع فى فقه الله أن يعبد غير الله[1] ...

(١) ١٠

ياللعجب !!

لقد اتهم بعض الناس أبا حيان بالزندقة والإلحاد ، ووصمه بعضهم بأنه شر على الإسلام من ابن الراوندى .

وقد تبين لنا بطلان هذا الاتهام ، وأنه تنفيس عن موجدة على الرجل ، أو زلفى للحكام الذين ثلبهم .

وإننا لنعجب أشد العجب من أن يكون أبو حيان صوفيا وزنديقا فى آن واحد.

أما صوفيته فلا شك فيها .

فقد وصفه ياقوت بأنه شيخ فى الصوفية ، وبأنه صوفى السمت والهيئة[1]

وعلل السبكى تحامل الذهبى عليه بأن أبا حيان صوفى ، والذهبى يبغض الصوفية[2] .

ووصفه أبو العباس أحمد زركوب بأنه إمام فى المتصوفة لا نظير له ، وذكر أن أبا الحسن بن أحمد بن سالبة شيخ مشايخ الصوفية فى عصره ، رآه فى المنام ، وسمع منه أن الله غفر له ، فزار قبره فى جمع من مريديه ، وصلى عليه ، وأشار بوضع لوح على قبره يكتب عليه اسمه[3] .

ثم إن أبا حيان نفسه يحدثنا بأنه حج فى رفقة من إخوانه المتصوفة سنة ٣٥٤هـ،

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٥

(٢) طبقات الشافعية للسبكى ٢/٤

(٣) شيراز نامه ١٠٩

ويصف ما احتملوا فى عودتهم إلى بغداد من مشقات جسام كادت تودى بهم[١].

وهو كان يتزيا بزى المتصوفة ، وينطبع بطابعهم وسمتهم[٢].

وكان يأنس إليهم ، ويصاحبهم . فقد سأله ابن سمدان عن شخص ، فقال له: والله الذى لا إله إلا هو ، ما كان بينى وبينه ما يقتضى هذا الأنس والاسترسال … وإنما ركنت إليه لمرقعته وتاسومته عند ما رأيته سنة ٣٦٩ هـ[٣].

وقد عابه أبو الوفاء المهندس بمخالطة الصوفية[٤].

وله أدعية كثيرة تشع بالتصوف العالى ، منها كتابه الإشارات الإلهية كله ، ومنها قوله :

« اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا ، واستر علينا فقد أعورنا ، وارزقنا الألفة التى تصلح القلوب ، وتنق الجيوب ، حتى نتعيش فى هذه الدار مصطلحين على خير ، مؤثرين للتقوى ، عاملين بشرائط الدين ، آخذين بأطراف المروءة ، آنفين من ملابسة ما يقدح فى ذات البين ، متزودين للعاقبة التى لابد من الشخوص إليها ، ولا محيد عن الاطلاع عليها ، إنك تؤتى من تشاء ماتشاء »[٥].

على أنه اختار شيراز مقاما له ، لأنها عامرة بالصوفية ، ومات بها ، ودفن بجوار المتصوف ابن عفيف .

يذكر آدم متز أن التصوف البغدادى قد ذاع فى العالم الإسلامى فى أواخر القرن الثالث الهجرى « إذ حمل تلاميذ السرى السقطى مذاهب الصوفيـــة

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/١٥٥ (٢) معجم الأدباء ١٥/٥
(٣) الإمتاع والمؤانسة ١/١٥ المرقعة : من ملابس الصوفية . التاسومة : نوع من النعال البالية يلبسه الفقراء
(٤) الإمتاع والمؤانسة ١/٧ (٥) الصداقة والصديق ٦

البغداديين إلى أنحاء المملكة الإسلامية ، فحملها موسى الأنصارى (المتوفى حوالى ٣٢٠ هـ) إلى خراسان ، والروذبارى (المتوفى ٣٢٢ بالفسطاط) إلى مصر ، وأبو زيد الآدمى (المتوفى عام ٣٤١ هـ) إلى جزيرة العرب .

وكذلك ظهر التصوف بمدينة نيسابور على يد أبى على محمد بن عبد الوهاب الثقفى (المتوفى ٣٢٨ هـ) وكانت شيراز بنوع خاص مملوءة بالصوفية حوالى آخر القرن الرابع »[1] .

— ٢ —

لكن أبا حيان — كعادته — لم يتصوف تصوفا عاميًّا أو شعبيا ، ولم يتصوف تصوف الذين يمسهم (الجذب) وفقدان الإدراك .

لهذا يقول إن الطريقة قد لحقها تحيف ، لكثرة الدخلاء فيها ، كما لحق البلاغة لكثرة مدعيها[2] .

وهذا هو السبب فى أنه ليس صاحب مذهب خاص فى التصوف .

ويظهر أنه كان يمزج الفلسفة بالتصوف ، ويجمع بين مذهب النساك والمتصوفة ، ومذهب أهل التفكير والفلسفة ؛ لأننا لا نجد له مذهبا مستقلا فى تصوفه ، ولا مذهبا معينا فى تفلسفه « فقد عرف كل المذاهب ، وانتقى منها ، وحمل على التقليد فى كل منها ، سواء أكان فى الدين أم فى الفلسفة »[3] .

ويجدر بنا أن نعرض بعض العقائد الكبيرة عند المتصوفة ، ونتبين موقف أبى حيان منها .

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ٢/١٨

(٢) رسالة العلوم ٢٠٧ ملحقة بالصداقة والصديق

(٣) أمراء البيان ٢/٥٩٤

١ — غالى بعضهم فى الحالة التى تعتريه ، سواء أفسرناها بأنها دعوى وحدة الوجود ، أم فسرناها بأنها وحدة الشهود .

وتفصيل ذلك أن أهل الورع لم يجدوا فى علم الكلام مايطمئن نفوسهم ، فتقربوا إلى الله بطريق آخر على أساسه دينى وروحانى ، وقام مذهبهم على أعمال لها أسرارها ، وعلى شيوخ ومُريدين .

وظل التصوف فى جملته داخلا فى نطاق مذهب أهل السنة ، الذين كانوا من الحكمة بحيث تغاضوا عن شطحات الشعراء ، وأصحاب المواجد .

والمتصوفة والسنية متفقون فى القول بأنه لافاعل فى كل شىء إلا الله . غير أن الغلاة من المتصوفة زادوا على هذا قولهم إنه لاموجود فى كل شىء إلا الله . فقد روى عن الحسين الحلاج قوله : أنا الحق ، وقوله : ما فى الجبة إلا الله ، وقوله :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنـــا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصـــرته وإذا أبصرته أبصرتنـــا ؟

وكلامه هذا صالح لأن يفهم منه معنى وحدة الوجود وبعض المتصوفة يؤولها بأنها كلام يقال فى حال الفناء فى الله .

على أنه ينبغى أن نميز بين ما يسمى عندهم وحدة الوجود ، وما يسمى وحدة الشهود . فالأولى مذهب يقول إنه لاموجود إلا الله ، بمعنى أنه لاوجود مستقل بذاته إلا وجود الله ، أما العالم فليس وجوده من ذاته ولا بذاته ولا لذاته ، ولا قوام له بذاته ، وإنما هو شأن من شئون الله . وبعضهم يعبر عنه بأنه فعل من أفعال الله ، ولهذا يقول جمهور الصوفية المحققون إنه ما ثَمَّ إلا الله وأسماؤه وأفعاله . أما الثانية فهى عندهم حال تستولى على بعض الصوفية ، يفقد صاحبها

التمييز بين نفسه وبين ذات الله ، أو بين المخلوقات وبين الله ، فيرى أن هذه الحوادث هى الله ، وأن الله يخاطبه بها ، فيقول كما قال الحلاج ، وصاحب هذا المشهد يكون فى حال كحاله فى الرؤيا المنامية ، وفى حال الصحو يفرق بين الخالق والمخلوق ، فيعتقد أن العالم غير الله ، على المعنى المتقدم من أنه شأن من شئونه . ويسمى هذا المقام عندهم مقام الفرق ، وهو مقام الكاملين فى نظرهم . وفى حال الفناء والمحو يفقد التمييز بين المخلوق والخالق ، ويرى أن كل شىء هو الله ، وهذا مقام الجمع (١) .

ولسنا نجد فى كتب أبى حيان شيئاً من هذا كله .

٣ — ظهرت عند بعض الصوفية نزعة إلى التحرر مما فى هذه الدنيا حتى الشريعة . يحكى ابن حزم أن « منهم من يقول إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع ... نعوذ بالله من الضلال » (٢) ويذكر أن بعضهم فضل بعض الأولياء على جميع الرسل والأنبياء (٣) . ويذكر القشيرى فى رسالته التى ألفها سنة ٤٣٧ أن أكثر شيوخ الصوفية المحققين قد انقرضوا ، وصار المتصوفة يعدون قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ويرفضون التمييز بين الحرام والحلال ، ويستخفون بأداء العبادات ، ويستهينون بالصوم والصلاة ، ولم يكتفوا بذلك ، بل ادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، وزالت عنهم أحكام البشرية ، وليس لله عليهم عتب ولا لوم (٤) .

ولم يكن أبو حيان يدين بشىء من هذا ، فقد حج فى جماعة من إخوانه

---

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ٧٣ ديبور

(٢) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ٤/١٨٨

(٣) المرجع السابق ٤/٢٢٦

(٤) مقدمة الرسالة القشيرية ٢

الصوفية سنة ٣٥٤ هـ[١] ، فأدى الفريضة . وكان كما وصفه ياقوت يتعبد ، والناس على ثقة من دينه[٢] .

٣ — اشتهر كثير من المتصوفة فى القرن الرابع والخامس بمعاشرة المخالفين ورفقة النساء ، وصحبة الأحداث[٣] . ولكن أبا حيان لم يخالط هؤلاء ، وكانت صلاته بالعلماء والأدباء والحكام والمتصوفة .

٤ — غلبت العزوبة على المتصوفة فى القرن الرابع ، على الرغم من أن أكثر الصوفية القدماء كانوا متزوجين[٤] .

والسبب فى إيثارهم العزوبة أن تخلو قلوبهم من المشاغل ، وأن يبرءوا من الشهوات والمعاصى .

وبعضهم تزوج ، لكنهم كانوا فى شغل عن زوجاتهم وأبنائهم[٥] . والذى نعلمه أن أبا حيان لم يتزوج ، لكننا لسنا نعلم الباعث له على العزوبة ، أهو التصوف أم الإعراض لسبب آخر ؟

وعلى فرض أنه عزف عن الزواج لتصوفه ، فإن هذا لا يكفى لوصفه بالتأثر الكبير بمذاهب الصوفية ، ومحاكاتهم فى عقائدهم ورسومهم محاكاة كاملة .

٥ — تغالى الصوفية فى تعظيم النبي عليه الصلاة والسلام تغاليا لم يعرفه سواهم .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢/١٥٥ (٢) معجم الأدباء ١٥/٥

(٣) الرسالة للقشيرى ٢٢ — ٢٤

(٤) الرسالة للقشيرى ١٦٨ ، ١٧٩ (٥) اللمع للطوسى ١٩٩

ولكن أبا حيان كان — كسائر المسلمين — يعظم النبي ويمجده في حدود رسالته وبشريته .

من تغالى الحلاج قوله في الطواسين :

أنوار النبوة من نوره بَرَزَتْ ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، وليس في الأنوار نور أنور وأظهر ، وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم . همته سَبَقَت الهمم ، ووجوده سَبَق القدم ، واسمه سبق القلم ، لأنه كان قبل الأمم[1] ...

الناموسُ نَمْتُه ، والشمس ميدانه ، والنفوس إيوانه ، والمأنوس حيوانه ، والمطموس شأنه ، والمدروس عيانه ، والعروس بستانه ، والطموس بنيانه[2] .

قيل لإبليس : اسجد ، ولأحمد انظر . هذا ما سجد ، وأحمد ما نظر ، ما التفت يمينا ولا شمالا ، ما زاغ البصر وما طغى . أما إبليس فإنه دعا ، لكنه ما رجع إلى حَوْله ، وأحمد صلى الله عليه وسلم ادّعى ، ورجع عن حوله ، بقوله : بك أَحُول وبك أَصُول[3] .

٦ — الصوفية يعتقدون في الولاية والأولياء اعتقادا خاصا ، والأولياء في نظرهم طبقات وأنواع[4] ، ولهم كرامات لاشك فيها[5] . وهم يفرقون بينها وبين المعجزات بأن المعجزات للأنبياء ، والكرامات للأولياء وخيار المسلمين .

---

(١) الطواسين ١١ (٢) الطواسين ٣٩

(٣) الطوسين ٤١

(٤) طبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٣٧

(٥) الرسالة للقشيري (باب الكرامات)

وقد ذكر الطوسى أقوالهم فى صدق الكرامات ، وأورد أمثلة كثيرة لكراماتهم، ورد على من أنكروها [١] .

أما أبو حيان فلا يعتقد فى الكرامات ، ولا فى الولاية والأولياء بهذا المعنى . يدل على ذلك قوله :

« فأما أصحاب النّسك ومن عُرف بالعبادة والصلاح ، فقد ادّعى لهم أن الصُّفر يُصيَّر لهم ذهبا ، وشيئا آخر يُصيَّر لهم فضة ، وأن الله عز وجل يزلزل لهم الجبل ، وينزل لهم القَطْر ، وينبت لهم الأرض ، وغير ذلك مما هو كالآيات للأنبياء ، وربما يسمّى كثير من الناس ما يظهر للزّهاد والعبّاد من هذا الضرب كرامات ، ولا يسميها معجزات . والحقائق لاتنقلب بالأسماء ، فإن المسمى بالكرامة هو المسمى بالمعجزة الإلهية » [٢] .

وهو يرد ما يحدث من أشباه ذلك إلى الاتفاق والمصادفة [٣] .

ويعتقد أن التقوى هى السبيل إلى الكرامة ، إذ يروى ماقاله القاضى أبو حامد المروروزى فى أن التقوى هى السبيل إلى الكرامة : « السبب أولى من النسب ، والسبب التقوى ، وبها تظهر الكرامة .

وقال تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » [٤] .

٧ — من أساس التصوف الزهادة فى المال والجاه ومتاع الدنيا ، والقناعة النزر الذى يحفظ الروح ، والرضا بشظف العيش ، وضيق اليد .

ولكن أبا حيان — كما قدمنا فى أخلاقه ، وكما سنبين بعد — كان ساخطا

---

(١) اللمع للطوسى ٣١٥ — ٣٣٣

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/٤٠

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢/١٥٣

(٤) البصائر والذخائر ١٤٣

على حظه ، وكان متبرما بفقره ، وكان كثير الشكوى من بؤسه ، وكان دائب الاتصال بالوزراء لينال منهم .

٨ — على أن أبا حيان يوافق الصوفية فى أنه كان صوفىّ السمت والهيئة كما وصفه ياقوت . وقد صرح له أبو الوفاء المهندس بأن منظره وزيّه وملابسه لاتؤهله للاتصال بالوزراء .

قال له أبو الوفاء المهندس :

أتظُنّنّ بشَمارتك — غفلتك — وذهابك فى فسولتك — خستك وضعفك وقلة مروءتك — التى اكتسبتها بمخالطة الصوفية والغرباء والمجتدين الأدنياء الأردياء ، أنك تقدر على مثل هذه الحال — يريد قطيعته له وتهديده بالعقاب — وأنام منك على حسن الظن بك »[1] ...

ولنا أن نتخيله رث الهندام ، قصير الذيل ، كما وصف نفسه ابن عبد العزيز السوسى فى قوله :

سلكتُ فى مسلك التصوف تنميـ ... ـساً فكم للذيول قصّرتُ
سوّيتُ سجادة بيوم وأحفيـ ... ـتُ سبالا قد كنت طوّلتُ[2]

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٧

(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ٣/٢٣٧ تنميس : تلبيس وموارأة

بؤسه وإغفاله

— ١ —

قضى على أبي حيان أن يعيش بائسا ، خشن المضجع ، نَزْر المال ، كلما غالبه الأيام لينال رغيبة من الدنيا غلبته الأيام ، وكلما اتصل بوزير أو كبير ليأنس في رحابه ، ويستمتع برفاهة الحياة كما يستمتع مَنْ هم دونه ، تنكر له الحظ ، فبدَّل آماله آلاما ، وصيّر ابتسامه عويلا ونواحا .

وهكذا قضى الرجل حياته .

وهل نتطلب دليلا على بؤسه أوضح وأقوى من قوله لأبي الوفاء المهندس : « خلصني من التكفف ، أنقذني من لبس الفقر ، أطلقني من قيد الضر ، اكفني مئونة الغداء والعشاء . إلى متى الكُسَيرة اليابسة ، والبُقَيْلة الذاوية ، والقميص المرقّع ؟ إلى متى التأدم بالخبز والزيتون ؟ ...

قد أذلني السفر من بلد إلى بلد ، وخذلني الوقوف على باب باب ، ونَكَّرني العارف بي ، وتباعد عني القريب مني »[1] .

فلما مات لاحقه الإغفال والإهمال ، حتى إن ياقوتا الحموي عجب من ذلك ، وقال : « لم أر أحدا من أهل العلم ذكره في كتاب ، ولا دمجه في ضمن خطاب ، وهذا من العجب العُجاب »[2] .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٣/٢٢٦

(٢) معجم الأدباء ١٥/٦

— ٢ —

ولقد نستطيع ردّ بؤسه وتجاهله إلى عدة أسباب :

١ — أولها أخلاقه التى تحدثنا عنها ، وهى فى جملتها لم تكن أخلاق رجل يحسن مداخلة الناس ، ومباشرة الحكام وذوى السلطان .

ولو أنه كان بعيد النظر لعرف أن الناس يتحامونه إذا ما أنسوا منه السخط على من عاشرهم من قبل ، لأنهم يتوقعون أن يكون نصيبهم منه مثل نصيب سابقيهم .

ولو أنه كان حصيفا لأمسك لسانه عن تناول حاشية أى وزير يتصل به ، لأن حاشية الوزير لا تعجز عن الكيد لمن يتطاول عليها .

ولو كان أبو حيان صاحب عزمة قوية لاعتمد على نفسه ، ولكسب المال بكده وعمله .

٢ — على أنه عادى الخاصة من حكام وعلماء ، كما سبق فى وصفه لأعوان ابن سعدان وحاشيته . وكقوله فى ابن فارس العالم اللغوى الأديب :

إنه شيخ فيه محاسن ومساوىء ، إلا أن الرجحان لما يُذَمّ به لا لما يُحْمَد عليه ... وهذا كله مردود بالرعونة والمكر والإيهام والخسة والكذب والغيبة[1] » .

وكذلك تناول العِلْية من العلماء مثل أبى عبد الله الحسين بن على رئيس المتكلمين فى عصره ، وصاحب مؤلفات فى الفقه الكلام .

ومثل أبى عبد الله محمد بن النعمان رئيس الشيعة الإمامية فى الفقه والكلام

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٣/١٠٥

والآثار ، وأستاذ الشريف الرضي والشريف المرتضى . ومثل أبي القاسم الدّاركيّ الفقيه الشيعي البغدادي ، ومثل أبي بكر الباقلاني أحد أعلام المتكلمين وأنصار مذهب الأشاعرة ، ومؤلف كتاب إعجاز القرآن[1] .

وقد وصف الفقهاء بأن كلامهم مرذول ، لأنهم مرنوا على فنون الخطأ ، لسوء عنايتهم بلغة نبيهم عليه السلام[2] .

٣ — ليس بعيدا عن الصواب أنه خمل في عصره عند العامة، كما غُمِط حقّه عند الخاصة .

ذلك بأنه ترفع على العامة ترفّع من لا يعبأ بهم ، ومن ينظر إليهم على أنهم في الحضيض وهو في الأوج ، فلم يخالطهم كما خالطهم الجاحظ مثلا ، ولم يمتزج بهم ، أو يُشركهم في بعض شئونهم ، بل إنه تنقص تديّنهم ، ودعا إلى النفرة منهم ، فكان خصما لهم ، وكانوا له خصوما .

يدل على ذلك ما نقله عن أستاذه أبي سليمان المنطقي من ازدراء معارف العامة، وأنها « لا توحيد لها ، ولا حقيقة معها ، ولا مبالاة بها »[3] .

ويدل عليه أيضا أيضا أنه رفض أن يتصدى القصص وتثقيف العامة ، لأن « التصدي للعامة خُلوقة (امتهان) وطلب الرفعة بينهم ضعة ، والتشبه بهم نقيصة . وما تعرض لهم أحد إلا أعطاهم من نفسه وعلمه وعقله ولُوثته ونفاقه وريائه أكثر مما يأخذ منهم من إجلالهم وقبولهم وعطائهم وبَذْلهم .

وليس يقف على القاص إلا أحد ثلاثة :

(١) الإمتاع والمؤانسة ١٣٩ — ١٤٣
(٢) البصائر والذخائر ٢٣
(٣) المقايسات ١٣٨

إما رجل أبله ، فهو لا يدرى ما يخرج من أم دماغه .

وإما رجل عاقل فهو يزدريه ، لتعرضه لجهل الجهال .

وإما له نسبة إلى الخاصة من وجه ، وإلى العامة من وجه ، فهو يتذبذب عليه من الإنكار الجالب للهجر ، والاعتراف الجالب للوصل .

فالقاص حينئذ ينظر إلى تفريغ الزمان لمداراة هذه الطوائف ، وحينئذ ينسلخ من مهماته النفسية ولذاته العقلية ، وينقطع عن الازدياد من الحكمة بمجالسة أهل الحكمة ، إما مقتبسا منهم ، وإما قابسا لهم .

وعلى ذلك فما رأيت من انتصب للناس قد ملك إلا درهما وإلا دينارا أو ثوبا ، ومناصبة شديدة لماثليه وعُداته[1] .

٤ — وقد وجد معاصروه فى كتابه (مثالب الوزيرين) حملات على الوزيرين الأديبين ، لم يرضوها ، واعتقدوا أنه كتاب مشئوم لا يملكه أحد إلا ساءت حاله . وقد ذكر ابن خلكان أنه جرب هذا ، وجربه غيره ممن يثق بهم[2] . ومن هنا تجافى الناس عن كتب أبى حيان كلها ، وتجافوا عن ذكره أيضا .

٥ — ثم إن المؤرخين تغافلوا عنه — على علو قدره ، وسعة علمه ، ومقدرته فى البيان — إما نفورا من تطاوله على علماء عصره ، وإما ثأرا منه ، لأنه هجا ابن العميد وابن عباد ، وقد كان لهما أنصار كثير من العلماء والأدباء .

٦ — على أنه سلق عصره كله بلسانه فى مواضع شتى من كتبه .

كقوله فى حسرته على ماضيه وأساه من حاضره : « بارت البضائع ، وغارت

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٢٢٥ (٢) وفيات الأعيان ٢ /٤٧٠

البدائع ، وكسد سوق العلم ، وخمد ذكر الكرم ، وصار الناس عبيد الدرهم بعد الدرهم »(١) .

وقوله : قد أصبحنا فى هذه الدار ، وكأنما هى قاع أملس ، أو أثر أخرس . لم يبق من يُرضى هديه ، أو يخطب عُرفه ، أو يقتفى جوده ... وما ذاك إلا لتنغل القلوب ، ودخل الأعراق ، وخلوقة الدين ، وغلبة القِحة ، والتبجح بالفحشاء والمنكر » (٢) .

وقوله : « وقد بُلينا بهذا الدهر ، الخالى من الديّانين الذين يُصلحون أنفسهم ، ويصلحون غيرهم بفضل صلاحهم ، الخاوى من الكرام الذين كانوا يتّسعون فى أحوالهم ، ويُوسّعون على غيرهم من سعتهم ... فذهب هذا كله ، وتاه — هلك — أهله ، وأصبح الدين وقد أُخلِق لبوسه ، وأوحش مأنوسه ، واقتلع مغروسه ، وصار المنكر معروفا ، والمعروف منكرا . . . وحصل الأمر على أن يقال : فلان خفيف الروح ، وفلان حسن الوجه ، وفلان ظريف الجملة ، حسن اللعب فى النرد ، مدبّر للأموال ، معروف بالاستقصاء ، لا يُغضى عن دانق ، ولا يتغافل عن قيراط ...

وهذه كلها كنايات عن الظلم والتجديف — الكفر بنعمة الله — والخساسة والجهل وقلة الدّين ، وحب الفساد »(٣) ...

٧ — وربما كان نظراؤه يحسدونه ، ويجهدون أنفسهم فى النيل منه ، وكان المتصلون منهم برجال الحكم يباعدون ما بينهم وبينه .

وهو نفسه يصرح بذلك فى قوله :

---

(١) معجم الأدباء ١٥/١٦ (٢) المقابسات ١١٧

(١) الإمتاع والمؤانسا /١٦ — ١٨

« وأنا أسألك ثانيةً على طريق التوكيد ، كما سألتك أولا على طريق الاقتراح ، أن تكون هذه الرسالة مَصونةً عن عيون الحاسدين العَيّابين ، بعيدةً عن تناول أيدى المفسدين المنافسين ؛ فليس كل قائلٍ يَسلَم ، ولا كل سامعٍ يُنصِف . والبَليّةُ مضاعَفةٌ من جهة النُّظراء فى الصناعة . وللحَسَد ثَوَرانٌ فى نفوس هذه الجماعة ، وقَلَّ من يجتهد جُهْدَه فى التقرب إلى رئيس فى التَّقرُّب إلى رئيس أو وزير ، إلا جَدَّ فى إبعاده من مَرامه كلُّ صغير وكبير . وهذا لأن الزمان قد استحال عن المعهود وجَفا عن القيام بوظائف الديانات وعادات أهل المروءات ، لأمور شرحُها يَطول .

وقد كان الناس يَتقَلّبون فى بَسيط الشمس (أعنى الدين) فغَرُبت عنهم ، فماشوا بنور القمر (أعنى المروءة) فأفَلَ دُونهم ، فبَقُوا فى ظلمات البر والبحر (أعنى الجهل وقلة الحيـاء) ، فلا جَرَمَ أُعضِل الداء ، وأشكل الدواء ، وغَلَبت الحيرة ، وفُقِد المرشد ، وقل المسترشد ، والله المستعان »(١) .

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٢

إحراق كتبه

— ١ —

كأنما تأبى حياة أبى حيان إلا أن تكون سلسلة موصولة من حلقات الضيق والغرائب والمفارقات . أو كأنما أرادت له أخلاقه ومزاجه أن يكون ذا عجائب وغرائب .

ولقد كنا نتوقع من عالم أديب مثله أن يفعل كل شيء ، إلا أن يقدم إلى النار ثمرات عقله ، وغراس قلمه ، وفلذات نفسه ، ونتائج كده وسهره .

لكنه قد فعلها ، ولكنه قد دافع عن فعلته دفاعا يحسبه مقنعا أو مبررا ، وهو لا إقناع فيه ولا تبرير .

— ٢ —

أما خلاصة دفاعه فهى :

١ — أن كل حى مصيره إلى الفناء ، إلا الخالق سبحانه .

٢ — أنه استخار الله فى إحراقها .

٣ — أنها لم تنفعه ، فقد عاش معدما ، ولم تكسبه الوجاهة بين الناس .

٤ — لم يجد من يفهمها ويقدرها .

٥ — خشى أن يتخذها قوم بعد وفاته وسيلة للنيل منه إن كان بها سهو أو غلط ، وقد عاين منهم فى حياته تحاملا عليه ، وترصداً لهفواته .

٦ — أنه نيّف على الثمانين ، فلا أمل له فى مجد أو غنى أو لذة حياة .

٧ — وقد مات خِلاّنه ، فهو يوشك أن يلحق بهم .

٨ — وله أسوة بالعلماء الذين دفنوا كتبهم أو أغرقوها أو مزقوها أو أحرقوها .

٩ — أن الشهرة بَهْرَج وزَيف ، وإنما العبرة بالأعمال الصالحة والرضا .

١٠ — أن الحرص على الكتب كالحرص على الذهب والفضة ، وسيموت صاحب الكتب ، ويموت صاحب الذهب ، ولا خير فيما جمع من كتب أو ذهب ، وإنما الخير فيما قدم من عمل صالح .

١١ — أنه أحرق كتبه فى حال يائسة ، فقد كان مريضا ، معسرا .

١٢ — أن هذا قضاء من الله وقدر .

وهذه الأدلة أو المعاذير كلها خطابية ، ليس من بينها سبب واحد يصح أن يحمل العالم الأديب على إحراق كتبه .

بل هى ضرب من المغالطة الماهرة .

وقد صدق فى قوله إنه أحرقها فى مرضه وعسرته . ويظهر أنه كان قد ضعف ضعفا شديدا ، فهو فى رسالته السابقة يقول لأبى سهل « لم أزل فى محبتك على قربك ونأيك ، مع ما أجده من انكسار النشاط ، وانطواء الانبساط ، لتَعاوُدِ العلل علىّ ، وتخاذل الأعضاء منى . فقد كلّ البصر ، وانعقد اللسان ، وجَمَد الخاطر ، وذهب البيان ، ومَلَك الوسواس ، وغلب اليأس من جميع الناس »[1] .

ومن هنا نعلم أنه أحرق كتبه فى غمرة من النقمة والألم واليأس والوسواس ،

(١) معجم الأدباء ١٥/١٤

ولسنا نشك فى أنه بكاها بعد أن هدأت نفسه ، وفى أنه كان يتعزى عنها بأن نسخا منها عند بعض الناس .

وما من شك فى أن المكتبة العربية كانت ستخسر خسارة فادحة ، لو أن هذه الكتب قد توارت مع الزمن ، ولو لم يحتفظ بهـا الذين كانوا قد اقتنوها ، وحرصوا عليها .

ولو أن أبا حيان استشف ما وراء العمر ، واستكنه الغيب ، لعلم أن كتبه — التى استخف بها ، واستهان بما فيها ، ويئس من تقدير الناس لها — ستحتل الصدارة فيما خلّف العقل العربى من تراث مجيد ، يتجدد على الزمن ، ويستحق الإعجاب والتقدير .

غفر الله لأبى حيان ، فقد كان على علمه وأدبه مستوفز الحس ، حاد المشاعر ، سريع الغضب ، أقرب إلى التشاؤم وسوء الظن ، وهذه هى البواعث الصحيحة التى زينت له أن يقدم إنتاجه كله طعمة للنار ، وهو لا يدرى أنه يحرق أشهى الثمرات ، ولا يعبأ بما يوجّه إليه من ملام .

— ٣ —

ولما أحرق كتبه أرسل إليه القاضى أبو سهل على بن محمد يَعْذِله على فَعْلته ، ويعرفه قبح ما ارتكب ، فرد عليه أبو حيان يعتذر من ذلك فى كتاب طويل ، حاول فيه أن يبرر عمله ، وصور فيه أطرافا من حياته .

وكتابه هذا هو الوحيد فى الأدب العربى الذى يصور فعلة كهذه .

وإنه لجدير بالتسجيل فى هذه الدراسة .

قال أبو حيان :

« حرسك الله أيها الشيخ من سوء ظنى بمودتك وطول جفائك ، وأعاذنى من

مكافأتك على ذلك . وأجارنا جميعا مما يُسَوِّد وَجْهَ عهد، إن رعيناه كنا مستأنسين به ، وإن أهملناه كنا مستوحشين من أجله . وأدام الله نعمته عندك ، وجعلني على الحالات كلها فداك .

وافاني كتابك ... الذي وصفتَ فيه ما نال قلبك ، والتهب في صدرك ، من الخبر الذي نُمِيَ إليك فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنار ، وغسلها بالماء .

فعجبتُ من ازوراء وجه العذر عنك في ذلك ، كأنك لم تقرأ قوله جل وعز « كل شيء هالكٌ إلا وجهه ، له الحكمُ وإليه تُرْجَعُون » وكأنك لم تأبه لقوله تعالى : « كلٌّ من عليها فانٍ » وكأنك لم تعلم أنه لاثبات لشيء من الدنيا ، وإن كان شريف الجوهر كريم العنصر ، مادام مُقَلَّبا بيد الليل والنهار ، معروضا على أحداث الدهر وتَعاوُدِ الأيام .

ثم إني أقول : إن كان — أيدك الله — قد نَقَبَ خُفَّك ما سمعتَ ، فقد أدمَى أظلي (باطن إصبعي) مافعلتُ ، فَلْيَهُنْ عليك ذلك ، فما انبريتُ له ، ولا اجترأتُ عليه ، حتى استخرتُ الله عز وجل فيه أياما وليالي ، وحتى أوحي إليَّ في المنام بما بعث راقدَ العزم ، وأجدَّ فاتر النيه ، وأحيا ميِّتَ الرأي ، وحثَّ على تنفيذ ما وقع في الرَّوْع ، وتَرَيم (تحير) في الخاطر .

وأنا أجودُ عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبتَ ، أو بالعذر إن استوضحتَ ، لتثقَ بي فيما كان مني ، وتعرفَ صُنْعَ الله تعالى في تنبيه لي (المراد صنعه لي) .

إن العلم — حاطك الله — يراد للعمل ، كما أن العمل يراد للنجاة ، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كَلا على العالم ، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلا وأورث ذُلاًّ ، وصار في رقبة صاحبه غُلاًّ .

ثم اعلم — علمك الله الخير — أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته ، فأما ما كان سرا فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغبا ، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالبا .

على أنى جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمد الجاه عندهم ، فحرمت ذلك كله ، ولاشك فى حسن مااختاره الله لى ، وناطه بناصيتى ، وربطه بأمرى .

وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجة علىّ لا لى .

ومما شحذ العزمَ على ذلك ، ورفع الحجاب عنه ، أنى فقدت ولدا نجيبا ، وصديقا حبيبا ، وصاحبا قريبا ، وتابعا أديبا ، ورئيسا منيبا (يريد أن المستحقين لإبقائه على كتبه لاوجود لهم) فشق علىّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضى إذا نظروا فيها ، ويشمتون بسهوى وغلطى إذا تصفحوها ، ويتراءون نقصى وعيبى من أجلها .

فإن قلت : ولم تسِمهم بسوء الظن ، وتقرّع جماعتهم بهذا العيب ؟ فجوابى لك أن عيانى منهم فى الحياة هو الذى يحقق ظنى بهم بعد المات .

وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد ، ولا ظهر لى من إنسان منهم حفاظ ؟

ولقد اضطررت بينهم ، بعد الشهرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم .

وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك . وليس ماقلته

يخاف عليك ، مع معرفتك وفطنتك ، وشدة تَنَبُّهك وتفرغك .

وما كان يجب أن ترتاب فى صواب مافعلتُه وأتيتُه بما قدمتُه ووصفته ، وبما أمسكتُ عنه وطويته ، إما هربا من التطويل ، وإما خوفا من القال والقيل .

وبعد فقد أصبحتُ هامة اليوم أو غد ، فإنى فى عَشْر التسعين ، وهل لى بعد الكَبْرة والعجز أمل فى حياة لذيذة ، أو رجاء لحال جديدة ؟

ألستُ من زمرة من قال القائل فيهم :

نروح ونغدو كل يوم وليلة وعما قليل لا نروح ولا نغدو

وكما قال الآخر :

تَقَوَّضتْ دَرَّاتِ الصِّبا فى ظلاله إلى أن أتانى بالعظام مَشيبُ

والله ياسيدى لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان فى هذا الصُّقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى ، فكيف بمن كانت العين تَقَرُّ بهم ، والنفس تستنير بقربهم ؟

فقدتُهم بالعراق والحجاز والجبل والرَّىّ وما والى هذه المواضع ، وتواتر إلىَّ نَعْيُهم ، فهل أنا إلا من عنصرهم ؟ وهل لى مَحيدٌ عن مصيرهم ؟ أسأل الله تعالى ربَّ الأولين أن يجعل اعترافى بما أعرفه موصولا بنزوعى عما أقترفه ، إنه قريب مجيب .

وبعد فلى فى إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يُقْتَدى بهم ، ويُؤْخذ بهديهم ، ويُعْشَى إلى نارهم ، منهم : أبو عمرو بن العلاء ، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر ، وورع معروف ، دفن كتبه فى بطن الأرض ، فلم يوجد لها أثر .

وهذا داود الطائى — وكان من خيار عباد الله زهدا وفقها وعبادة ، ويقال له تاج الأمة — طرح كتبه فى البحر ، وقال يناجيها : نعم الدليل كنت ، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول ، وبلاء وخمول .

وهذا يوسف بن أسباط حمل كتبه إلى غار فى جبل ، وطرحها فيه ، وسد بابه . فلما عوتب على ذلك قال : دلنا العلم فى الأول ، ثم كاد يضلنا فى الثانى ، فهجرناه لوجه من وصلناه ، وكرهناه من أجل ما أردناه .

وهذا أبو سليمان الدارانى جمع كتبه فى تنور وسجرها (أحماها فى النار) بالنار ، ثم قال : والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك .

وهذا سفيان الثورى مزق ألف جزء وطيرها فى الريح ، وقال : ليت يدى قطعت من هاهنا ، بل من هاهنا ، ولم أكتب حرفا .

وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافى سيد العلماء قال لولده محمد : قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل ، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار .

وماذا أقول وسامعى يصدق أن زمانا أحوج مثلى إلى ما بلغك لزمان تدمع له العين حزنا وأسى ، ويتقطع عليه القلب غيظا وجوى وضنى وشجا ، إن احتجت إلى العلم فى خاصة نفسى فقليل ، والله تعالى شاف وكاف ، وإن احتجت إليه للناس ففى الصدر منه ما يملأ القرطاس ، إلى أن تفنى الأنفاس بعد الأنفاس « ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

فلم تمنى عينى — أيدك الله — بعد هذا بالحبر والورق والجلد والقراءة

والمقابلة والتصحيح ، وبالسواد والبياض ؟

وهل أدرك السَّلَف الصالح فى الدين الدرجات العُلَى إلا بالعمل الصالح ، وإخلاص المعتقد ، والزهد الغالب فى كل ماراق من الدنيا ، وخدع بالزِّبْرِج ، وهوَى بصاحبه إلى الهبوط ؟

وهل وصل الحكماء القدماء إلى السعادة العظمى إلا بالاقتصاد فى السعى ، وإلا بالرضا بالميسور، وإلا ببذل ما فَضَل عن الحاجة للسائل والمحروم ؟ .

فأين يَذْهَبُ بنا ، وعلى أى باب نحط رحالنا ؟ .

وهل جامعُ الكتب إلا كجامع الفضة والذهب ؟ .

وهل المنهومُ بها إلا كالحريص الجشع عليهما ؟ .

وهل المغرمُ بحبها إلا كمكاثرها ؟ .

هيهات ، الرحيل والله قريب، والثَّواء قليل ، والمَضْجَعُ مُقِضٌ ، والمقام مُمِضٌّ ، والطريق مَخُوف ، والمعين ضعيف ، والاغترار غالب ، واللهُ من وراء هذا كله طالب .

نسأل الله تعالى رحمة يُظلنا جناحها ، ويُسَهِّلُ علينا فى هذه العاجلة غُدُوَّها ورواحها ، فالويلُ كلُّ الويل لمن بَعُدَ عن رحمته بعد أن حصل تحت قَدَره .

فهذا هذا . ثم إنى — أيدك الله — ما أردت أن أجيبك عن كتابك لطول جفائك ...

على أني لو علمتَ في أي حال غلب عليَّ ما فعلتهُ ، وعند أي مرض وعلى أية عُسْرة وفاقة، لعرفتَ من عذري أضعاف ما أبديتُه ، واحتججتَ لي بأكثر مما نشرتُهُ وطويتُه .

وإذا أنعمتَ النظر، تيقنت أن لله جل وعز في خَلْقه أحكاما لا يُعَازُ عليها ولا يغالب فيها ، لأنه لا يُبْلَغ كنهها ، ولا ينال غَيْبها ، ولا يعرف قابُها (قدرها) ولا يقرع بابها .

وهو تعالى أَمْلَكُ لنواصينا ، وأطلعُ على أدانينا وأقاصينا ، له الخلق والأمر ، وبيده الكَسْر والجَبْر ، وعلينا الصمت والصبر ، إلى أن يوارينا اللحد والقبر ... ... والسلام »[1] .

---

(١) معجم الأدباء ١٥/١٦ — ٢٦

اتهامه بالوضع

— ١ —

عرفنا أن خصومه جرّحوا دينه ، إذ اتهموه بالزندقة ظالمين ، وتمادى أحدهم فادعى أنه شر على الإسلام من ابن الراوندى الزنديق الملحد .

وكأنما لم تَشفِ هذه التهمة ما بأنفسهم من حَنق على أبى حيان ، فراحوا يطعنونه فى ناحيته الأدبية ، إذ اتهموه بالوضع ، حتى لا يوثق بروايته لخبر من الأخبار ، ولا لنص أدبى أو تاريخى .

وأول مايسترعى النظر فى هذا الاتهام أن القائلين به من رجال الحديث لامن رجال الأدب واللغة .

والعجيب أن الرجل لم يكن من المحدثين الكبار المشهورين ، وإن كان فى نظر السبكى من المحدثين فى عصره ، وروى عنه جماعة [1] .

فهل كانت روايته للحديث ورواية تلاميذه عنه أوسع آفاقا وأبعد مدًى مما ذكر السبكى ؟

هل كان رواية بعيد الصيت ، ثم أهملت روايته ؟ مانظن ذلك .

على أننا نقرأ كتبه ، فنجده يستشهد بأحاديث كثيرة ، ليس فيها ما يتنافى مع روح التشريع ، ولا مع الصبغة العامة للأحاديث النبوية .

وإذاً فلا بد من باعث آخر لأن يتهمه بالوضع بعض رجال الحديث والدين .

---

(١) طبقات الشافعية ٤ / ٢

— ٢ —

وأغلب الظن أن ذلك الباعث هو الرسالة التى رَوَى أبو حيان أن أبا بكر وعمر أرسلاها إلى علىّ، حينما تأخر عن بيعة أبى بكر، فجاء على وحاورها وحاوراه، وكان أبو عبيدة بن الجراح حامل الرسالة الشفهية إلى علىّ .

١ — وهى رسالة طويلة[1]، ذكر أبو حيان أنه سمعها من القاضى أبى حامد المروروزى[2]، رواية عن عيسى بن دأب، عن صالح بن كيسان، عن هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير، عن أبى عبيدة بن الجراح . مع اختلاف فى سلسلة الرواة فى بعض مراجع الرسالة .

٢ — ولهذه الرسالة مصدقون ومكذبون، بعضهم يثبت ويدلل، وبعضهم ينفى ويعلل، وبعضهم يكتفى بالنفى أو الإثبات .

وقد وقف منها بعض الدارسين موقف الحيدة المطلقة، فلم يثبتها ولم ينفها .

أما الذين نفوها فهم الذهبى وابن حجر وابن أبى الحديد والسندوبى وزكى مبارك .

ذكر الذهبى عن جعفر بن يحيى الحكاك أنه سمع من أبى النصر الشجرى أنه سمع الماليني يقول : قرأت الرسالة المنسوبة إلى أبى بكر وعمر — مع أبى عبيدة إلى على رضى الله عنه — على أبى حيان، فقال لى : هذه الرسالة عملتها ردا على

---

(١) الرسالة فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٢/٥٩٢ — ٥٩٧ وصبح الأعشى ١/٢٣٧ — ٢٤٧ ونهاية الأرب للنويرى ٧/٢١٣ — ٢٢٩ ومقدمة المقابسات ٢٥

(٢) أبو حامد أحمد بن بشر البصرى المروروزى . كان عالماً بفنون العلوم الدينية والأدبية . قال فيه أبو حيان « كان بحراً يتدفق حفظاً للسير والأخبار، واستنباطاً للمعانى، وثباتاً على الجدل، وصبراً فى الخصام . وقال إنه أنبل من رأيته فى عمرى . توفى ٣٦٢ هـ .

الرافضة ؛ لأنهم كانوا يحضرون مجلس بعض الوزراء ، ويغالون فى حال علىّ ، فعملت هذه الرسالة .

وعلق الذهبي على هذا بقوله : فقد اعترف بوضعها [١]

وأنكرها ابن حجر ، واتهم أبا حيان بوضعها [٢] .

وشك فيها ابن أبي الحديد ، ودلل على شبهته بعدة أدلة ، وقال إن الغالب على ظنه أن هذه المراسلات والمحاورات والكلام كله مصنوع موضوع ، وإنه من كلام أبى حيان التوحيدى .

وملخص أدلته هو :

ا — هذا الكلام شديد الشبه بكلام أبى حيان ومذهبه فى البلاغة والخطابة .

ب — لا يشبه هذا الكلام كلام أبى بكر وعمر ، لما فيه من بديع المحدثين وصناعتهم ، وإنما هو أشبه بكلام أبى حيان .

حـ — أسنده أبو حيان إلى أبى حامد المرووزى ، وهذه عادته فى كتاب البصائر ، يسند إليه كل ما يريد أن يقول هو إذا كره أن ينسب إليه .

د — لم يذكر أحد من المتكلمين على اختلافهم من معتزلة وشيعة وأشعرية وأصحاب حديث ، كلمة واحدة من هذه الحكاية .

هـ — كان الرضىّ شديد الحرص على التقاط ماروى عن علىّ ، وإذا ظفر بكلمة من كلامه فكأنه ظفر بملك الدنيا ، وقد أودع هذا كله كتبه ، فأين كان

---

(١) ميزان الاعتدال للذهبي ٣ / ٣٥٥

(٢) لسان الميزان ٦ / ٢٩٦

الرضي عن هذا الحديث [١] ؟

وكيف غفل عن هذا من كانوا قبل الرضي من علماء الإمامية كابن النعمان، وبني نوبخت وبني بويه وغيرهم ؟ ومن كانوا بعده من متكلمي الشيعة وأصحاب الأخبار والحديث إلى وقتنا هذا ؟

و — أين كان أصحابنا (المعتزلة) عن كلام أبي بكر وعمر لعلي ؟ وكيف لم يذكره قاضي القضاة [٢] في المغني ، مع احتوائه على كل مادار بينهم ، حتى إنه يصلح لجمع تاريخ كبير في أخبار السقيفة ؟

وهلاّ ذكر هذا الكلام من كانوا قبل قاضي القضاة من مشايخنا وأصحابنا، ومن جاءوا بعده من متكلمينا ورجالنا ؟

وكذلك القول في متكلمي الأشعرية وأصحاب الحديث كابن الباقلاني ، وقد كان شديدا على الشيعة وعلى أمير المؤمنين علي ، فلو أنه ظفر بكلمة من كلام أبي بكر وعمر في هذا الحديث لملأ الكتب بها .

الأمر في وضع هذه القصة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق من علم البيان ومعرفة بكلام الرجال ، ولمن عنده أدنى معرفة بعلم السير ، وأقل أنس بالتواريخ [٣] .

وقد أيقن السندوبي بوضعها ، لأن أسلوبها الزاخر بالاستعارات والمجازات لا يتفق مع المعروف من رسائلهم وخطبهم ، ولأن فيها عبارات لا تتناسب مع أخلاقهم [٤] .

---

(١) أبو الحسن محمد الشريف الرضي نقيب الطالبيين . جامع كتاب نهج البلاغة . توفي سنة ٤٠٤ أو ٤٠٦ .

(٢) أبو الحسين عبد الجبار الهمذاني الأسدابادي العالم المتكلم المعتزلي الشهير . توفي سنة ٤١٥ .

(٣) شرح نهج البلاغة ٢/٥٩٧

(٤) مقدمة المقابسات ٤٠

ثم جاء الدكتور زكي مبارك فذهب إلى أن التوحيدي اخترع حديث السقيفة، وأنطق الصحابة بكلام مسجوع ، لأنه كان يعرف لغتهم كذلك ، ومن دقة محاكاته أنه حرص على التسامح في التزام السجع في بعض الفقرات ، ليوافق المنهج الذي عرف في نظم القرآن والحديث وخطب الصحابة والخلفاء الراشدين(١)

٣ — وقد صدّق الرسالة — فيما نعلم — اثنان : هما محمد كرد علي وعبد الرازق محيي الدين .

أما الأستاذ محمد كرد علي فذهب إلى أن الرسالة صحيحة ، واستبعد أن يضعها التوحيدي « وبعيد عن العقل أن يضع التوحيدي هذه الرسالة ، وهي بعيدة عن أسلوب كلامه ، وإن أحب ابن أبي الحديد أن يشبهها به . أما التوحيدي فرواها عن رجل معروف كان يحفظها ...

وبالجملة فالدلائل كلها قائلة بأن الرسالة ليست من صنع أبي حيان ، وأنها كانت معروفة قبله .

وإذا أبى بعضهم إلا أن يقول إنها موضوعة كلها أو بعضها فيكون ذلك قبل عصر التوحيدي بكثير . وهي على كل حال لا تخلو من أصل ، ربما زيد عليه بأيدي من أحبوا أن يقابلوا القوة بمثلها من أهل السنة ، فأرادوا نكاية الشيعة في كثير مما صنعوه ، فزادوا أمورا في هذه الرسالة وقعت بين الصحابة ، أو تمثلوا وقوعها » (٢) .

ثم جاء الدكتور عبد الرازق محيي الدين فرجح أن الرسالة صحيحة :

ا — لأن فيها نيلا من أبي بكر وعمر ، ولم يكن أبو حيان جاهلا بمذاهب

---

(١) النثر الفني ١/٦٩

(٢) أمراء البيان ٢/٥٣٦

الفرق الإسلامية ، حتى يتعمد إيذاء الإمامية بالحط من مقام الخليفتين .

ب — ولأنها تمثل حال القوم جملة ، وتصور نفسية أبى بكر وعمر وعلى أثناء حادث السقيفة .

حـ — ولأنها شبيهة بأساليبهم .

ى — ولأن أبا حيان أعلن أنه رواها بالنص [١] .

٤ — وقد نظر النويرى إلى الرسالة نظرة المحايد ، فلم يمل إلى صدقها أو كذبها ، ووكل السر فى حقيقتها إلى الله [٢] .

٥ — والذى أراه أن الرسالة موضوعة ، ولست أشك فى أنها مصنوعة .

فمن الذى وضعها ؟ أهو القاضى أبو حامد ؟ أم أبو حيان ؟

كلا الفرضين محتمل .

فمن الجائز أن أبا حامد قد افتعلها ، وكتمها زمنا ، ولم يطلع عليها غير الوزير المهلبى ، كما قال لجلسائه الذين كانوا يسمرون عنده ، فلما أخبرهم بها ، وأعلموه أنهم يجهلونها ، وألحوا عليه أن يرويها لهم ، رواها .

وهو فى روايته لها يسندها إلى عيسى بن دأب ، عن صالح بن كيسان ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه عروة بن الزبير ، عن أبى عبيدة بن الجراح . وكان أبو عبيدة هو الوسيط بين أبى بكر وعلى ، وهو الذى حمل الرسالة إلى علىّ .

نعم من الجائز أن تكون الرسالة من صنع أبى حامد ، فلما سمعها أبو حيان صدقها وأثبتها ، لأنه كثيرا ما روى عن أبى حامد ، وكثيراً ما وثق به .

---

(١) أبو حيان التوحيدى ١٠٩

(٢) نهاية الأرب ٧/٢١٤

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الجائز أن تكون الرسالة من اختلاق أبى حيان ، ولكنه عزاها إلى أبى حامد ، ليقوى سندها ، وليَسلم من تبعتها .

وأدلتى على أن الرسالة موضوعة هى :

ا — فى الرسالة عقيدة شيعية غالية ، لم تكن قد نشأت ، ولا عُرفت حينما بويع أبو بكر بالخلافة ، ففيها تصريح بأن عليا ينتظر الوحى ، ويتوقع أن يهبط عليه جبريل .

جاء فى كلام عمر لعلى : « ولقد جاءنى عقيل بن زياد الخزرجى فى نفر من أصحابه ومعهم شُرَحْبيل بن يعقوب الخزرجى فى قوم من الأنصار ، فقالوا : إن عليا ينتظر الإمامة ، ويزعم أنه أولى بها من أبى بكر . فأنكرتُ عليهم ، ورددت القول فى نحورهم ، حتى قالوا : إنه ينتظر الوَحْى ، ويتوكَّف (ينتظر) مناجاة المَلَك . فقلت : ذاك أمر طواه الله بعد محمد » ...

(ب) فيها تهجُّم على الإمام علىّ وتجريح ، ولم يكن أبو بكر أو عمر ليطلق لسانه بمثل هذا ، ولم يكن علىّ ليطيق أن يسمع مثل هذا ، كقول أبى بكر لعلى :

« ما هذا الذى تسوِّل لك نفسك ، ويَدْوى [(١)] به قلبك ، ويلتوى عليه رأيك ، ويتخاوص [(٢)] دونه طَرْفك ، ويستشرى به [(٣)] ضِغْنك ، ويتردد معه نفَسك ... أدينٌ غير دين الله ؟ أخُلق غير خلق القرآن ؟ أَهدى غير هدى محمد ؟ أمثلى تَمْشِى له الضَّراء ، وتَدب له الخَمَر [(٤)] ؟ ...

---

(١) يمرض

(٢) التخاوص تضييق النظر مع تحديده كمن ينظر إلى الرمح لتقويمه أو إلى قرص الشمس

(٣) يزيد (٤) المراد تحاول ختله

إنك والله لجدّ عارفٍ باستجابتنا لله ولرسوله ، وخروجنا من أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا ، فى زمان أنت فيه فى كِن الصّبا ، وخِدْر الغَرارة[1] ، غافل مما يُشيب ويُريب ، لا تعى ما يشاد ويراد ، سوى ما أنت جارٍ عليه من أخلاق الصبيان أمثالك ، وسجايا الفتيان أشكالك ...

فدع التجسُّس والتمسُّس لمن لا يَظلع لك إذا خطا[2] ، ولا يتزحزح عنك إذا عطا[3] .

ومثل ذلك قول عمر فى الرسالة نفسها :

ما هذه الخُنْزوانة[4] التى فى رأسك ؟ وما هذا الشّجا المعترض فى مدارج أنفاسك ؟ وما هذه الوَحرة[5] التى أكلت شرا سيفك[6] ؟

وما هذا الدَّخَس[7] والدَّس اللذان يدلان على ضيق الباع ، وخَوَر الطباع ؟ وقوله :

فإن يكن فى الأمد طول ، وفى الأجل فسحة ، فستأكله مريّاً أوغير مرِىّ ، وستشرب به هنيّاً أوغير هنىّ ، حين لا رادّ لقولك إلا من كان آيسا منك ، ولا تابع لك إلا من كان طامعا فيك ، حين يُمَض إهابك ، ويُمْرك أديمك ، ويُزْرَى على هَدْيك . هنا لك تقرع السن من ندم ، وتشرب الماء ممزوجا بدم ..

(حـ) فى أول الرسالة كلام من أبى بكر لأبى عبيدة ، ينبىء عن قلق المرسل لرسوله ، وخديعته بالثناء ، وتعليق النجاح كله بوساطته ومهارته .

---

(١) الحداثة

(٢) لمن لا يخطو إليك كما يخطو الأعرج أو المصاب فى قدمه

(٣) عطا : تناول أو رفع رأسه ويديه

(٤) الـكبر (٥) الحقد

(٦) مقطع الأضلاع (٧) ورم وانتفاخ من الغضب

ولم يكن الأمر كذلك ؛ لأن أبا عبيدة — فيما تزعم الرواية — كان رسولا مقيدا بتبليغ رسالة إلى على من أبى بكر وعمر ، ولم يكن رسولا طلقا حرا يعتمد على مهارته فى إصلاح ذات البين .

قال أبو بكر لأبى عبيدة :

« يا أبا عبيدة ، ما أيمن ناصيتك ، وأبين الخير بين عينيك . لقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط ، والمحل المغبوط . ولقد قال فيك فى يوم مشهور : « أبو عبيدة أمين هذه الأمة » . وطالما أعز الله الإسلام بك ، وأصلح ثلمه على يدك . ولم تزل للدين ملتجا ، وللمؤمنين مرتجى ، ولأهلك ركنا ، ولإخونك ردءا . قد أردتك لأمر ما بعده خطر مخوف ، وصلاحه من أعظم المعروف . ولئن لم يندمل جرحه بمسبارك(١) ورفقك ، ولم تجب حيته برقيتك ، فقد وقع اليأس ، وأعضل الباس ، واحتيج بعدك إلى ما هو أمر من ذلك وأعلق ، وأعسر منه وأغلق . . .

ى — وإنه ليسارع إلى الخاطر الشك فى صدق الرسالة ، لأنه ليس بمعقول أن يرويها هؤلاء فردا عن فرد ، ثم تظل الرسالة مجهولة نحو أربعة قرون ، لم يعلم بها أحد ، إلى أن بلغت أبا حامد المروروزى ، فرواها للوزير المهلبى ، ثم رواها لجلسائه .

ولو أن أبا حامد كان معاصرا لأبى عبيدة لجاز أن يعلم بالرسالة وحده ، لكن بينه وبين أبى عبيدة أربعة رواة ، فكيف تواتق كل منهم على أن يرويها لشخص واحد لا يتعداه ؟ وكيف بقيت الرسالة فى طوايا الزمن هذا العمر الطويل وهى مجهولة غير متداولة ؟

---

(١) آلة يعرف بها غور الجرح

مع أن المؤرخين قد دونوا كل ما دار بين المهاجرين والأنصار يوم السقيفة ، وفصلوا القول تفصيلا فى الخلاف بين أبى بكر وعلىّ .

على أننا نجد فى كلام أبى حيان ما يؤكد أن شخصا آخر كان يعرف الرسالة ، ولكن أبا حيان آثر رواية أبى حامد على روايته .

قال أبو حيان : روى لنا هذه الرسالة أبو حامد ، ثم أخرج لنا الأصل ، فقابلناه بها ، فما كان غادر منها إلا مالا بال له .

فأما ما رواه لنا أبو منصور الكاتب ، فإنه خالف فى أحرف فى حواشى الكتاب ، كل حرف بإزاء نظيره الذى هو مبدل منه . وقد كان أبو منصور بلغة العرب أبصر ، وفى غرائبها أنفذ .

وإنما قدمت رواية أبى حامد؛ لأنه بشأن الشريعة أعلم ، ولأعاجيبها أحفظ ، وفيما أشكل منها أفقه .

(هـ) أسلوب الرسالة يغاير تمام المغايرة أسلوب الزمن الذى قيلت فيه .

فهى كثيرة الأسجاع فى جمل قصار متوازنة ، ولقد يتوالى سجعها ويطّرد .

وإذا لاحظنا أنها رسالة شفهية لا مكتوبة ، ثم إذا لاحظنا أن السجع القصير الفقرات المتوازن كان كثيرا حتى فى مشافهة عمر لعلىّ ، ازددنا شكا فى أسلوبها ، ورجحنا أنها من إنشاء القرن الرابع .

من الفقرات المسجوعة المتوالية ، قول أبى بكر :

« البحر مغْرِقة ، والبر مَفْرَقة ، والجو أكْلَف[1] ، والليل

---

(١) مغبر

اغدف[١] ، والسماء جلواء[٢] ، والأرض صلعاء[٣] ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسّر ، والحق عطوف رءوف ، والباطل نسوف عسوف[٤] » .

ومن السجع المطرد حتى فى مشافهة عمر لعلىّ بعد أن حضر وبايع أبا بكر :

« يا أبا الحسن ، كفكف من غربك ، ونهنهه من سربك ، ودع العصا بلحائها ، والدلو برشائها ، فإنا من خلفها وورائها ، إن قدحنا أورينا ، وإن قرحنا أدمينا ، وإن منحنا أروينا » .

(و) فى الرسالة تفرقة بين معانى المفردات المترادفة ، لاتعتمد على ذوق لغوى ، ولا على عرف شائع فى ذلك العصر ، وإنما تعتمد على التفلسف والتمحل ، وهى بهذا بعيدة كل البعد من أسلوب عمر بن الخطاب .

جاء فى كلام عمر الذى حمّله أبا عبيدة لينقله إلى علىّ أن عمر يعترف بأن أبا بكر أقرب إلى رسول الله قربة ، ويرتب على هذا أن القربة روح ونفس ، ويعترف بأن عليا أقرب إلى الرسول قرابة ، ويرتب على هذا أن القرابة دم ولحم ، ونتيجة هذا كله أن أبا بكر أولى بالخلافة .

وليس فى اللغة تفريق بين القرابة والقربة ، لأنهما بمعنى واحد[٥] .

قال عمر : « إن أبا بكر كان حبة قلب رسول الله وعلامة نفسه ، وعيبة سره ، ومفزع رأيه ومشورته ، ومشوى حزنه ، وراحة باله ، ومرمق طرفه . . . ولعمرى إنك أقرب منه إلى رسول الله قرابة ، ولكنه أقرب

---

(١) مرخ سدوله وظلامه (٢) صافية

(٣) لا معالم فيها ولا شجر (٤) نسوف : شديد الإهلاك

(٥) أساس البلاغة والقاموس المحيط

منك قُرْبة ، والقرابة لحم ودم ، والقُرْبة روح ونَفَس ، وهذا فرقٌ عرفه المؤمنون » ...

(ز) فى أسلوبها خيال كثير ليس من سمات النثر فى ذلك العصر ، مثل :

« ونحن أثناء ذلك نعانى أحوالا تزيل الرواسى ، ونقاسى أهوالا تشيب النواصى ، خائضين غمارها ، راكبين تيارها ، نتجرع صابَها ، ونَشْرَج عيابَها[1] ، ونُحْكم أساسها ، ونُبْرم أمراسها[2] ، والعيون تَحْدِج بالحسد ، والأنوف تَعْطِس بالكبر ، والصدور تستعر بالغيظ ، والأعناق تتطاول بالفخر ، والألسنة تُشْحَذ بالمكر ، والأرض تميد بالخوف ، ولا نَدْفَع فى نحر أمر إلا بعد أن نَحْسُو الموت دونه ، ولا نبلغ الى شىء إلا بعد تَجرع العذاب قبله » .

(ح) وأخيرا نعود فنسائل الذهبى عن الباعث الذى زين لأبى حيان أن يصطنع الرسالة ردا على الرافضة .

أهو بغضة أبى حيان لعلى ؟

لم أجد فى كتبه بغضة لعلىّ ، أو مؤازرة لخصومه .

بل إن فى ثنايا كتبه ما يدل على تقديره لعلى وبنيه .

فهو لا يذكر الإمام عليا إلا فى إجلال ودعاء ، كأن يقول : أمير المؤمنين على ابن طالب كرم الله وجهه[3] ، أو على رضى الله عنه[4] .

---

(١) نشرج : نعقد العرى . العياب : جمع عيبة وهى وعاء من جلد . والمراد نرتق الأمور ونصلحها

(٢) الأمراس : الحبال

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢ / ٣١

(٤) البصائر والذخائر ١٤٦

ولا يذكر أبناءه إلا كذلك .

فقد ذكر الحديث الشريف « تحفةُ الصائم الطيب »[١] ، وقال : هكذا رواه الحسين بن علي عن أبيه عليهما السلام[٢] .

وروى حكمة لمحمد بن الحنفية ، وقال (عليه السلام)[٣] وذكر الحسن والحسين مقرونين بقوله عليهما السلام[٤] .

وفي الرسالة نفسها ما يبعد أنها اختلقت للنيل من عليّ ، لأن الذي يقرؤها في تمعن يشعر بالعطف عليه ، ويعجب بحلمه وجلادته في مقابلة التهجم والشتم والاتهام بما هو أقرب إلى الصفح الجميل ، وبما يكفل المسلمين الوحدة .

قال عليّ لأبي عبيدة : أهذا كله في أنفس القوم ، يستنبطونه ويضطغنون عليه ؟.. والله ما كان قعودي في كِسر هذا البيت قَصْدَ الخلاف ، ولا إنكارا لمعروف ، ولا زراية على مسلم ، بل لما وَقَذني به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعني من الحزن لفقده ... وقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرق منه ، رجاء ثوابٍ مُعَدّ لمن أخلص لله عمله ، وسلّم لعلمه ومشيئته أمره ...

وإذْ قد أنعم الوادي بي ، وحَشَد النادي عليّ ، فلا مرحبا بما ساء أحدا من المسلمين . وفي النفس كلام لولا سابق عهد لشفيت غيظي بخنصري

---

(١) في لسان العرب ١٠/٣٦٠ في الحديث تحفة الصائم الدهن والمجمر . يعني أنه يذهب عنه مشقة الصوم وشدته

(٢) البصائر والذخائر ١٤٣

(٣) البصائر والذخائر ١٤٤

(٤) المرجع السابق ١٤٤

وينصرنى ، ولكنى مُلْتَجِمٌ إلى أن ألقى الله ربى ، وعنده أحتسب ما نزل بى .

وإنى غادٍ — إن شاء الله — إلى جماعتكم ، ومبايع لصاحبكم ، وصابر على ما ساءنى وسركم » . . .

قال أبو عبيدة : فلما كان صباح يومئذ وافى علىّ ، فبايع أبا بكر ، وقال خيرا ، ووصف جميلا .

على أنها لا تخلو من طعن فى أبى بكر وعمر ، عن طريق غير مباشر ، لأنها تصورهما شتّامَيْن لعلىّ ، متخوفين من تخليه عن البيعة ، ظالمين له فى تعنيفه واتهامه .

وإذاً فليست الرسالة كلها فى صالح أبى بكر وعمر ، وليست كلها نصرة لعلى بن أبى طالب ، لأنها سلاح ذو حدّين ، تنفع وتضر ، وتنصر وتخذل .

ولعل هذا الفهم هو الذى تبادر إلى بعض الباحثين قديما ، فاختلفوا فى واضعها ، والغرض الأول من وضعها .

وهذا واضح فى قول النويرى :

« هذه الرسالة قد اعتنى الناس بها ، وأوردوها فى المجاميع . ومنهم من أفردها فى جزء ، وقطع بأنها من كلام أبى بكر وعمر وجواب علىّ . ومنهم من أنكرها ونفاها عنهم ، وقال إنها موضوعة .

واختلف القائلون بوضعها ، فمنهم من زعم أن فضلاء الشيعة وضعوها ، وأرادوا بذلك الاستناد إلى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه إنما بايع أبا بكر

الصديق بسبب ما تضمنته . . . ومنهم من زعم أن فضلاء أهل السنة وضعوها »[1].

ولعل الذين ذهبوا إلى أن الرسالة موضوعة للرد على الرافضة نظروا إلى أن الفكرة العامة للرسالة الرد على أن عليا أحق بالخلافة من أبى بكر ، وإثبات أحقية أبى بكر بها .

كقول أبى بكر : « لئن كان عرّض لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الأمر ، فلم يكن معرضا عن غيرك . وإن كان قال فيك فما سكت عن سواك . وإن تلجلج فى نفسك شيء فهلمّ فالحكم مرْضِى ، والصواب مسموع ، والحق مطاع . ولقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل ، وهو عن هذه العصابة راض ، وعليها حذر ، يسره ما يسرها ، ويسوؤه ، ما ساءها . . . أما تعلم أنه لم يَدَعْ أحدا من أصحابه وأقاربه وسُجَرائه[2] إلا أبانه بفضيلة ، وخصه بمزية ، وأفرده بحالة . . . وبعد فهذه المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى بقعة واحدة ، ودار جامعة . إن استقالونى لك ، وأشاروا عندى بك ، فأنا واضعٌ يدى فى يدك ، وصائر إلى رأيهم فيك ، وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، وكن العون على مصالحهم ، والفاتح لمغالقهم ، والمرشد لضالتهم ، والرادع لغوايتهم . . . ودعنا نقضى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل ، ونلق الله تعالى بقلوب سليمة من الضِّغْن » .

(١) نهاية الأرب ٧/٢١٣ — ٢٢٩

(٢) أصدقائه

أمانته فى الرواية والنقل والوصف

كان أبو حيان فى كتبه كلها يتحرى الدقة فى النقل وفى الرواية ، حتى لنحسب أن هذه الدقة عادة من عاداته ، لم يستطع الفكاك من سلطانها على نفسه .

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا ما عزونا هذه الدقة إلى أمانته العلمية ، وإلى ممارسته الطويلة للنسخ فى شبابه .

ولو أن الرجل كان غير أمين لأضاف كثيرا من الآراء القيمة إلى نفسه ، بدلا من نسبتها إلى ذويها ، لأنها كانت تكسبه مجدا وسَبْقاً وشهرة ، لكنه آثر أن ينسبها إلى ذويها ، وإن كان من الميسور أن يتبناها هو ، لأنه كان قد سمعها وحده ، أو قرأها وحده .

وإن أمانته لتتكشف فى تعقيبه أو تقديمه لبعض الآراء .

١ — فإذا أثبت الخبر بنصه نبه على ذلك ، كما فعل فى الرسالة المنسوبة إلى أبى بكر وعمر ، إذ قال : روى لنا هذه الرسالة أبو حامد المروروزى ، ثم أخرج لنا الأصل ، فقابلناه بها ، فما كان غادر منها إلا مالا بال له .

فأما ما رواه لنا أبو منصور الكاتب فإنه خالف فى أحرف فى حواشى الكتاب ، كل حرف بإزاء نظيره الذى هو مبدل منه . وقد كان أبو منصور بلغة العرب أبصر ، وفى غرائبها أنفذ .

وإنما قدمت رواية أبي حامد ، لأنه بشأن الشريعة أعلم ، ولأعاجيبها أحفظ ، وفيما أشكل منها أفقه » .

ومن ذلك أنه روى عن أبي الحسين القطان تعريفات لمصطلحات أصولية ، ثم علق عليها بقوله : « وليس جميع ما قال مقرونا بالسلامة ، لكني رويته على ما علقته ، ولم أزين لفظه ، ولا نمقت عبارته »[1].

وتكثر في كتبه التعقيبات الدالة على أمانته ودقته ، كقوله : قد رويته كما رأيته[2] . وهكذا حفظته من المجلس[3] .

ومن ذلك أنه فسر اللأمة باللؤم ، وقال إن هذا لفظ غريب لأن اللأمة الدرع . . . هكذا حصلته من أبي سعيد السيرافي سماعا وقراءة ومسألة ومراجعة[4] .

وفسر عنان السماء بالغيم الأبيض ، وهو أشد الغيوم ارتفاعا ، وقال : أما أعنان السماء فنواحيها ، هكذا قال الثقات ، وبخط السكري مر بي فنقلته ، وكان كذلك في كتب أبي بكر القومسي الفيلسوف بمدينة السلام[5] .

وقال إن الناهل الريان والعطشان ، هكذا جاء في الأضداد ، وهذا التفسير حفظته سماعا ورويته رواية[6] .

---

(١) البصائر والذخائر ٢٤٧

(٢) البصائر والذخائر ١٤٦

(٣) البصائر والذخائر ١١٥

(٤) البصائر والذخائر ٣٣

(٥) المرجع السابق ٣٧

(٦) المرجع السابق ٣٨

٢ — وإذا اختصر الكلام الذى سمعه نبه على اختصاره ، كقوله فى آخر جواب أبى سليمان له عن سؤال من أسئلته : « وكان ذيل الكلام أطول من هذا ، شمرته خوفا من جناية اللسان فى الحكاية ، ونزوة القلم فى الكتابة »(١) .

٣ — وإذا حكى بالمعنى ، وعبر هو بأسلوبه صرح بذلك ، كقوله : فقال كلاما كثيرا ، أنا أحكيه على وجهه من جهة المعنى ، وإن انحرفتُ عن أعيان لفظه وأسباب نظمه ، فإن ذلك لم يكن إملاء ولانسخا ، وأجتهد أن ألتزم مَتْنَ المراد وسَمْتَ المقصود »(٢) .

وقوله : « حصّلت — حفظك الله — المسألة بعد تشذب الكلام فيها ، ووعيتها جهدى من أولها إلى آخرها ، بطولها وعرضها ، ومدخلها ومغزاها . ولا أشك فى أطراف زلت عنى عند اختلاقها واقتباسها . وقد تَقَسّفتُ الجواب عنها على أوجه ، أنا أجتهد فى الإعراب عنها فى هذا الوضع بمبلغ وسعى . فإنى بين فائتة لا علم لى بها ، وبين زيادة لايطمئن متن الكلام إلا بها . وكلتاهما خطة صعبة . ولولا كلف النفس بالعلم ، ومحبتها للفائدة لكان الإضراب عنها أذبّ عن العرض ، وأصون للقدر ، وأبعد من استدعاء اللائمة ، ممن لعله لو أتى بهذا القدار لكان عندى عظيم المنة ، حقيقا بالشكر والمحمدة »(٣) .

وهذه الأمانة هى التى جعلت القفطى ينقل عنه وحده ما قاله فى إخوان الصفا .

---

(١) المقابسات ٢٥٩

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٣/١٠٨

(٣) المقابسات ١٢٤

قال القفطى : كتم مصنفو هذه الرسائل أسماءهم ، فاختلف الناس فى الذى وضعها ، وكل قوم قالوا قولا بطريق الحدس والتخمين . . .

ولم أزل شديد البحث والتطلب لذكر مصنفها ، حتى وقفت على كلام لأبى حيان التوحيدى ، جاء فى جواب له . . . فى حدود سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة ، وهو . . . »[١] .

٤ — وكان أبو حيان أمينا دقيقا فى وصف مجالس العلم والمناظرة ونقل الحوار بين العلماء والأدباء ، كما سنعرف من تحليل كتبه ودراســة خصائصه الفكرية والفنية . وكان أمينا دقيقا فى تسجيل الحوادث .

(ا) من ذلك أنه ذكر القبض على أبى الفتح ابن العميد ، ونقل ياقوت تفصيل الحادث عن أبى حيان وعن غيره ، وقدم لما نقله عن أبى حيان بقوله : « وقد نقلتها ها هنا عنه بكمالها ، فإنى لم أجد أحدا ذكرها أكمل منه »[٢] .

ويجدر بنا أن نتذكر إخفاق أبى حيان فى صلته بابن العميد ، ونتذكر ثأره منه فى كتابه (مثالب الوزيرين) لنزداد إكبارا لأمانته ودقته وهو يؤرخ لحادث وقع لشخص لا يوده ، ولا يدين له بمكرمة عليه . ولو أنه كان غير أمين لانتهز هذه الفرصة للحط من شأن ابن العميد والتجنى عليه .

نقل ياقوت عن أبى حيان قوله[٣] :

قال : ولما مات ركن الدولة سنة ست وستين وثلاثمائة اجتمع ذو الكفايتين

---

(١) تاريخ الحكماء . مختصر الزوزنى من إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ٨٣ — ٨٨

(٢) معجم الأدباء ١٤ / ٢١٥

(٣) معجم الأدباء ١٤ / ٢١٦

أبو الفتح وعلىّ بن كامَةَ أحدُ أُمراء الدّيلم والأعيان ، وتعاهدا وتواثقا وتحالفا ، وبذل كلٌّ واحدٍ منهما الإخلاص لصاحبه والمودة فى السر والعلانية ، والذبَّ والتوقير عنـد الصغير والكبير ، واجتهدا فى الأيمان الغامسة[1] والعقود الوثقة ، ودبرا أمر الجيش ، ووعدا الأولياء ، ورد النافرَ ، وركبا الخطر الخاطر ، وعانقا الخطب العاقر ، وباشر كل ذلك أبو الفتح خاصة بجد من نفسه ، وصريمةٍ من رأيه ، وجودة فكره ، وصحة نيته ، وتوفيق ربه .

فلما ورد مؤيد الدولة الرى من أصبهان وصادف الأمرمتسقاً ، ولقى كلٌّ فتقٍ مُرْتقاً بما تقدم من الحزم فيه ، ونفذ من الرأى الصائب عنده ، أنكر الزيادة الموجبة للجند فكرهها ودمدم بذكرها ، فقال له أبو الفتح : بها انظمت لك الملك ، وحفظت لك الدوله ، وصُنتُ الحريم ، فإن خالفت هـذه الزيادة هواك فأسقطها فاليد الطولى لك .

وكان ابن عباد قد ورد وحطبه رطب ، وتنوره بارد ، وأمره غير نافذ ، هذا فى الظاهر ، وأما فى الباطن ، فكان يخلو بصاحبه ويؤنبه على أبى الفتح بما يجد السبيل إليه من الطعن والقدح ، فأحس بذلك ابن العميد ، فألب الأولياء على ابن عباد ، حتى كثر الشغب وعظم الخطب ، وهم بقتله وقال للأمير : ليس من حق كفايتى فى الدولة وقد انتكثت حبلها ، وقويت أطماع المفسدين فيها أن أسام[2] الخسف ، والأحرار لا يصبرون على نظرات الذل وغمرات الهوان . فقال له فى الجواب : كلامك مسموعٌ ، ورضاك متبوع ، فما الذى يبرد فورتك عنه ؟ قال : ينصرف إلى أصفهان موفوراً ، فوالله لو طالبته منصفاً برفع الحساب لما نظر فيه ليعرقن جبينه ،

---

(١) الأيمان الغامسة واليمين الغموس : التى تغمس صاحبها فى الإثم ثم فى النار

(٢) أى أذل وأهان ، من أسامه الخسف : أى أذاقه الذل والهوان

ولئن أحس الأولياء الذين أصطنعهم بمالى وإفضالى بكلامه فى أمرى ، وسعيه في فساد حالى ، ليكونن هلاكه على أيديهم أسرع من البرق إذا خطف ، ومن المزن إذا نطف . فقال له : لا نخالف لرأيك ، والنظر لك ، والزمام بيدك .

وتلطف ابن عباد فى خلال ذلك لأبى الفتح وقال له : أنا أتظلم منك إليك ، وأتحمل بك عليك وهذا الاستيحاش سهل الزوال إذا تألفت الشارد من حلمك ، وعطفت على الشائع من كرمك . ولّنى ديوان الإنشاء واستخدمنى فيه ، ورتّبنى بين يديك ، وأحضرنى بين أمرك ونهيك ، وسمنى برضاك فإنى صنيعة والدك ، واتخذنى بهذا صنيعة لك ، وليس يجمل أن تكسر على ما بنى ذلك الرئيس فتهدمه وتنقضه ، ومتى أجبتنى إلى هذا وآمنتنى فإنى أكون خادمك بحضرتك ، وكاتباً يطلب الزلفة عندك فى صغير أمرك وكبيره ، وفى هذا إطفاء النائرة التى قد ثارت بسوء ظنك ، وتصديقك أعدائى علىّ . فقال فى الجواب : والله لا تجاورنى فى بلد السرير ، وبحضرة التدبير وخلوة الأمير ، ولا يكون لك إذن علىّ ولا عين عندى ، وليس لك منى رضا إلا بالعود إلى مكانك من أصبهان ، والسلوّ عما تحدثك به نفسك .

فخرج ابن عباد من الرى على صورة قبيحة متنكراً بالليل ، وذلك أنه خاف الفتك والغلبة ، وبلغ أصبهان وألقى عصاه بها ، ونفسه تغلى وصدره يفور ، والخوف شامل والوسواس غالب . وهمّ أبو الفتح بإنفاذ من يطالبه ويؤذيه ويهينه ويسمعه ، فأحس هو بالأمر .

فحدثنى أبو النجم قال : عمل على ركوب المفازة إلى نيسابور لما ضاق عطنه[1] ،

(١) العطن : مبرك الإبل والغنم ، وهذا كناية عن الخوف من كل ما حوله

واختلف على نفسه ظنه ، وإنه لفى هذا وما أشبهه ، حتى بلغهم أن خُراسان قد أزمعت الدُّلوف[١] إليهم ، وتشاورت فى الإطلال[٢] عليهم .

فقال الأمير لأبى الفتح : ما الرأى وقد نمى إلينا ما تعلم من طمع خُراسان فى هذه الدولة بعد موت ركن الدولة ؟ فقال أبو الفتح : ليس الرأى إلىّ ولا إليك، ولا الهمّ علىّ ولا عليك ، ها هنا من يقول لك : أنت خليفتى ، ويقول لى : أنت كاتب خليفتى ، يُدبر هذا بالمال والرِّجال وهو الملك عضد الدولة أخوك . قال : فاكتب إليه وأشعره وأشع ما قد منينا به وأشهره ، وسله يداوى هذا الداء . فكتب أبو الفتح وتلطف . فصدر[٣] فى الجواب : إن هذا لأمر عجابٌ ، رجل مات وخلف مالاً وله ابن فلم يحمل إليه من إرثه شىء زَوْياً عنه واستئثاراً دونه ، ثم يخاطب بأن يغرم شيئاً آخر من عنده قد كسبه بجهده ، وجمعه بسعيه وكدحه ، هذا والله حديث لم نسمع بمثله ، ولئن استفتى الفقهاء فى هذا لم يكن عندهم منه بتةً إلا التعجب والاستطراف ، ورحمة هذا الوارث المظلوم من وجهين: أحدهما أنه حرم ماله بحق الإرث ، والآخر أنه يطالب بإخراج ما ليس عليه ، وإن شاء حاكمت كل من سام هذا إلى من يرضى به .

فلما سمع مؤيد الدولة هذا قال لأبى الفتح : ما ترى ؟ قال : قد قلت وليس لى قول سواه ، هذا الرجل هو الملك والمدبر والمال كله ماله ، والبلاد بلاده ، والجند جنده ، والكل له ، والاسم والجلالة عنده ، وليس ها هنا إرث قد زُوِىَ عنه ، ولا مال استؤثر به دونه ، والنادرة لا وجه لها فى أمر الجد وفيما لا تعلق له باللعب ،

---

(١) أزمعت : اعتزمت ونوت . الدلوف : التقدم والزحف

(٢) يريد محاربتهم .

(٣) يريد فجاء الجواب من عضد الدولة فصدر

أما خراسان فكانت مذ عشرين سنة تطالبنا بالمال، وتهددنا بالمسير والحرب، ونحن مرة نحارب ومرة نسالم ، وفى خلال ذلك تفرق المال بعد المال على وجوه مختلفة ، فاحسبْ أن ركن الدولة حىٌّ باقٍ . هل كان له إلا أن يدبر عماله ورجاله وذخائره وكنوزه ؟ أفليس هذا الحكم لازماً لمن قام مقامه وجلس مجلسه ، وأُلقى إليه زمام الملك ، وأصدر عنه كل رأى ؟ وهل علينا إلا الخدمة والنصرة والمناصحة فى كلّ ما سهل وصعب ؟ كما كان عليه ذلك بالأمس من جهة الماضى .

فقال مؤيد الدولة : إن الخطاب فى هذا أراه يطول ، والكلام يتردد ، والمناظرة تربو ، والفريضة تحول ، والفرصة تفوت ، والعدو يستمكن ، وأرى فى الوقت أن نذكر وجها للمال حتى نحتج به ، ثم نستمد فى الثانى منه ، ويرضى الجند فى الحال، ونتحزم فى الأمر ، ونظهر المرارة والشكيمة بالاهتمام والاستمداد ، حتى يطير الخبر إلى خراسان بجدنا واجتهادنا، وحزمنا واعتمادنا، فيكون ذلك مكسرة لقلوبهم، وحسماً لأطماعهم ، وباعثاً على تجديد القول فى الصلح ورد الحال إلى العادة المألوفة .

فقال : نسأل الله بركة هذا الأمر ، فقد نشأت منه رائحة منكرةٌ ، ما أعرف للمال وجهاً ، أما أنا فقد خرجت من جميع ماعندى مرة بما خدمت به الماضى تبرعاً حِدْثان[1] موت أبى ، ومرة بما طالبنى به سراً ، وأوعدنى بالعزل والاستخفاف من أجله ، ومرة بما غرمت فى المسير إلى العراق فى نصرة الدولة ، وهذه وجوه استنفدت قلّى وكثرى ، وأتت على ظاهرى وباطنى ، وقد غرمت إلى هذه الغاية ما إن ذكرته كنت كأنى ممتن على أولياء نعمتى ، وإن سكتُّ كنت كالمتهم عند من يتوقع عثرتى ، فهذا هذا . وأما أموال النواحى فأحسن أحوالنا فيها أنا نرجّيها فى نواحيها مع النفقة الواسعة فى الوظائف والمهمات التى تنوبنا ، وأما

---

(١) مصدر حدث الشىء : ابتدأ ، يريد عند موت أبى .

العامة فلا أحوج الله إليها ، ولا كانت دولة لا تثبت إلا بها وبأوساخ أموالها .
فقال مؤيد الدولة وكان ملقّناً : هذا ابن كامة وهو صاحب الذخائر والكنوز والجبال والحصون ، وبيده بلاد ، وقد جمع هذا كله في دولتنا ، وحازه من مملكتنا وأيامنا وبدولتنا ، وهو جامّ[1] ماشيك ، ومختوم[2] مافضّ مذ كان ماتقول فيه .
قال . مالي فيه كلام ، فإن بيني وبينه عهداً ما أخيس[3] به ولو ذهبت نفسي . فقال : اطلب منه القرض . قال : إنه يستوحش ويراه باباً من المضاضة ، وقدر القرض لا يبلغ قدر الحاجة ، فإن الحاجة ماسة إلى خمسمائة ألف دينار على التقريب ، ونفسه أنفع لنا وأردّ علينا وأحصن لنا وإلينا من موقع ذلك المال ، وبعد رأيه وتدبيره واسمه وصيته فوق المطلوب منه .

قال : وإذ ليس ههنا وجه فليس بأس بأن يطالع الملك بهذا الرأى ليكون نتيجته من ثم . قال : أنا لا أكتب بهذا فإنه غدر .

قال ياهذا : فأنت كاتبي وصاحب سري والزمام في جميع أمري ، ولا سبيل إلى إخراج هذا الحديث إلى أحد من خلق الله ، فإن أنت لم تتول حارّه وقارّه ، وغثه وسمينه ، ومحبوبه ومكروهه فمن ؟ .

قال يأيها الأمير ا : لاتسمني الخيانة ، فإني قد أعطيته عهداً يذر الديار بلاقع[4] ، ومع اليوم غد ، ولعن الله عاجلة تفسد الآجلة . فقال : إني لست أسومك أن تقبض عليه وأن تسيء إليه ، أشر بهذا المعنى إلى الملك عضد الدولة وخلاك ذم ، فإن رأى الصواب فيه تولاه دونك ، وإن ضرب عنه أعاضنا رأياً غير ما رأينا ،

---

(١) الجام : المجتمع من الشيء ، يريد أن ماله مجتمع ما شيك . شيك مجهول من شاكه : آلمه بالشوك ، وذلك كناية عن كثرة ماله

(٢) مختوم مافض . كناية عن أن ما يملكه لم تمسسه يد

(٣) أخيس : أنكث بعهده وأنقضه

(٤) أى يتركها خرابا جمع بلقع

وأنت على حالك لا تنزل عنها ولا تبدلها ، وإنما الذى يجب عليك فى هذا الوقت بين يدى كُتّاب حرفين : إنه لا وجه لهذا المال إلا من جهة فلان ، ولست أتولى مخاطبته عليه ، ولا مطالبته به وفاء له بالعهد ، وثباتاً على اليمين ، وجرياً على الواجب ، ولا أقل من أن تجيب إلى هذا القدر ، وليس فيه شىء مما يدل على النكث والخلاف والتبديل .

وما زال هذا وشبهه يتردد بينهما حتى أخذ خطه بهذا على أن يصدره إلى أخيه عضد الدولة بفارس .

فلما حصل هذا الخط عنده وجن عليه الليل أحضر ابن كامة وقال له : أما عندك حديث هذا الخنث فيما أشار به على الملك فى شأنك ؟ وأورد عليه فى حقك وأمرك ، وإطماعه فى مالك ونفسك ، وتكثيره عنده ما تحت يدك وناحيتك .؟

فقال ابن كامة : هذا الفتى يرتفع عن هذا الحديث ، ولعل عدواً قد كاده به ، وبينى وبينه ما لا منفذ للسحـــر فيه ، ولا مساغ لظن سيىء به .

قال : ما قلت لك إلا بعد أن حققت ما قلتُ ، ودع هذا كله فى الريح ، هذا كتابه إلى الملك بما عرفتك ، وخطه بيده فيه .

قال علىّ بن كامة : أنا أعرف الخط ولكن هاتوا كاتبى . فأحضر كاتبـــه الخثعمىّ فشهد أن الخط خطه ، فحال علىّ بن كامة عن سجيته ، وخرج من مسكنه وقال : ما ظننت بعد الأيمان المغلظة التى بيننا أنه يستجيز مثل هذا .

قال الأمير : أيها الرجل ، إنما أطلعك الملك على سر هذا الملام فيك ، لتعرف فساد ضميره لك ، وما هو عليه من هنات أخر ، وآفات هى أكبر ، فإنه هو الذى حرك من بخراسان ، وكاتب صاحب جرجان ، وألقى إلى أخينا بهمذان — يعنى فخر الدولة — أخبارنا ، وهو عين لبختيار[1] هاهنا ، وقد اعتقد أنه يعمل فى تحصيل هذه البلاد ، ويكون وزيراً بالعراق ، فقد ذاق من بغداد ما لا يخرج من ضرسه إلا بنزع نفسه ، وكان أبو نصر المجوسىّ قد قدم من عند الملك عضد الدولة وهو يفتل الحبل ويبرم ،

---

(١) بختيار هو معز الدولة البويهى .

ويهاب مرة ويقدم ، وكان الحديث قد بيت بليل ، واهتم به قبل وقته بزمان .

فقال علىّ بن كامة: فما الرأى الآن ؟ قال: لا أرى أمثل من طاعة الملك فى القبض عليه وقد كنا على ذلك قادرين ، ولكن كرهنا أن يظن بنا أنا هجمنا على ناصحنا ، ومربب[1] نعمتنا ، وناشىء دولتنا ، فمهدنا عندك العذر ، وأوضحنا لك الأمر .

قال : فأنا أكفيكموه . ثم قبض عليه وكان منه ما كان ، واستدعى ابن عباد من من أصفهان، وولى الوزارة ودبرها برأى وثيق وجد رتبق[2] .

(ب) ومن ذلك أحاديثه عن علماء عصره وأدبائه ، ودقته فى نقل ما دار بمجالسهم من آراء وفتاوى .

كقوله[3] :

وقال أبو حيان فى كتاب محاضرات العلماء : حضرت مجلس شيخ الدهر ، وقريع العصر ، العديم المثل ، المفقود الشكل ، أبى سعيد السيرافى ، وقد أقبل على الحسين بن مَرْدَوَيْه الفارسى ، يشرح له ترجمة المدخل إلى كتاب سيبويه من تصنيفه . فقال له : علق عليه ، واصرف همتك إليه ، فإنك لا تدركه إلا بتعب الحواس ، ولا تتصوره إلا بالاعتزال عن الناس .

فقال : — أيد الله القاضى — أنا مؤثر لذلك ، ولكن اختلال الأمر وقصور الحال يحول بينى وبين ما أريده . فقال له : ألك عيال ؟ قال : لا . قال : عليك ديون ؟ قال : دريهمات . قال : فأنت رَيِّح القلب ، حسن الحال ، ناعم البال ، اشتغل بالدرس والمذاكرة ، والسؤال والمناظرة ، واحمد الله تعالى على خفة الحاد[4] ، وحسن الحال . وأنشده :

---

(١) كانت هذه الكلمة فى الأصل (مرتب) ويقال رب فلان الصبى وربيه : أى رباه حتى أدرك

(٢) من رتق الشىء : جعله يلتئم بعضه مع بعض

(٣) معجم الأدباء ٨/ ١٥٢

(٤) خفة الحاذ : يقال فلان خفيف الحاذ أى قليل المال والعيال

إذا لم يكن المرء مال ولم يكن ... له طرق يسعى بهن الولائد

وكان له خبز وملح ففيهما ... له بلغة حتى تجىء العوائد[١]

وهل هى إلا جوعة إن سددتها ... فكل طعام بين جنبيك واحد

قال : وكان يقرأ على أبى سعيد السيرافى الكامل للمبرد ، فجاءه أبو أحمد بن مردك وكان هذا من ساوة ، واستوطن بغداد وولد بها ، وكان له قرب ومنزلة من أبى سعيد ، يوجب حقه ويرعاه له . فقال : أيها الشيخ عندى ابنة بلغت حد التزويج ، وجماعة من الغرباء والبغداديين يخطبونها ، فما ترى ؟ وممن أزوجها ؟ فقال : فمن يخاف الله تعالى ، وأكثرهم تقية وخشية منه ، فإن من يخاف الله إن أحبها بالغ فى إكرامها ، وإن لم يحبها تحرج[٢] من ظلمها . فاستحسنا ذلك وأثبتناه . ثم قال : لا تنسبوا هذا إلىّ ، إنما هذا قول الحسن .

قال : وشبيه هذه الحكاية : أن رجلا وقف على الحسن فقال : علمنى ما يقربنى إلى الله تعالى وإلى الناس ، قال : أما ما يقربك إلى الله فمسألته ، وأما ما يقربك إلى الناس فترك مسألتهم .

وقال : وتأخر بعض أصحابه عن مجلسه فى يوم السبت ، وكان يرعى حق أبيه فيه ، لأنه كان وجيهاً شريفاً ، فلما كان يوم الأحد قال له : ما الذى أخرك ؟ فأشار إلى شرب الدواء ، ولأجله تأخر عن المجلس .

قال أبو حيان : وكان أبو سعيد يفتى على مذهب أبى حنيفة وينصره ، فجرى حديث تحليل النبيذ عنده ، فقال له بعض الخراسانيين : أيها الشيخ دعنا من حديث أبى حنيفة وقول الشافعى . ما ترى أنت فى شرب النبيذ والقدر الذى لا يسكر ويسكر ؟ فقال أما المذهب فمعروف لا عدول عنه ، وأما الذى يقتضيه

---

(١) العوائد جمع عائدة : وهى المعروف والصلة والعطف والمنفعة

(٢) تحرج من الأمر : تأثم ، وحقيقته : جانب الحرج أى الإثم وهو المراد

الرأى ويوجبه العقل ، ويلزم من حيث الاحتياط ، والأخذ بالأحسن والأولى ، فتركه والعدول عنه .

فقال له : بين لنا — عافاك الله — . فقال : اعلم أنه لو كان المسكر حلالا فى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، لكان يجب على العاقل رفضه وتركه ، بحجة العقل والاستحسان . فإن شاربه محمول على كل معصية ، مدفوع إلى كل بلية ، مذموم عند كل ذى عقل ومروءة ، يحيله عن مراتب العقلاء والفضلاء والأدباء ، ويجعله من جملة السفهاء . ومع ذلك فيضر بالدماغ والعقل ، والكبد والذهن ، ويولد القروح فى الجوف ، ويسلب شاربه ثوب الصلاح ، والمروءة والمهابة ، حتى يصير بمنزلة المخبَّط المخرِيق(١) والمثبَّج ، يقول بغير فهم ، ويأمر بغير علم ، ويضحك من غير عجب ، ويبكى من غير سبب ، ويخضع لعدوه ، ويصول على وليه ، ويعطى من لا يستحق العطيَّة ، ويمنع من يستوجب الصلة ، ويبذِّر فى الموضع الذى يحتاج فيه أن يُمسك ، ويمسك فى الموضع الذى يحتاج فيه أن يُبذِّر . يصير حامده ذاماً ، وأفعاله مَلاماً ، عبدُه لا يُوقِّرُه ، وأهله لا تقرِّبه ، وولده يهرب منه ، وأخوه يفزع عنه . يتمرغ فى قيئه ، ويتقلب فى سَلْحِه(٢) ، ويبول فى ثيابه ، وربما قتل قريبه ، وشتم نسيبه ، وطلق امرأته ، وكسر آلة البيت ، ولفظ بالخَنَى ، وقال كل غليظة وفحش . يدعو عليه جاره ، ويزرى به أصحابه . عند الله ملوم ، وعند الناس مذموم ، وربما يستولى عليه فى حال سكره مخايل الهموم ، فيبكى دماً ، ويشق جيبه حُزناً ، وينسى القريب ، ويتذكر البعيد ، والصبيان يضحكون منه ، والنسوان يفتعلن النوادر عليه . ومع ذلك فبعيد من

---

(١) المخبط : من خبطه الشيطان : أى مسه بأذى وضر به ، والمخريق ، من الخرق وهو الحمق ، والمثبج : من اثبأج الرجل ، أى ضخم واسترخى

(٢) من سلخ الرجل : أى تغوط

الله ، قريب من الشيطان ، قد خالف الرحمن فى طاعة الشيطان ، وتمكن من ناصيته ، وزين فى عينه إتيان الكبائر ، وركوب الفواحش ، واستحلال الحرام ، وإضاعة الصلاة ، والحنث فى الأيمان ، سوى ما حل به عند الإفاقة من الندامة ، ويستوجب من عذاب الله يوم القيامة .

فقال الرجل : والله إن قولك ووصفك له أعلق بالقلب من كل واضح وبرهان لائح ، وحجة وأثر ، وقول وخبر .

فقال له ، لولا ذهاب الوقت لا عوض له ، لاستدللت لكل خصلة ذكرتها ، ولفظة أوردتها بآية من كتاب الله ، أو خبر مأثور عن رسول الله ﷺ ، حتى قلت : إن الألفاظ مشتقة من ذاك مستنبطة منه ، ولكن الأمر فى هذا أظهر وأشهر ، من أن يبين ويوضح . ولأبى حنيفة مسائل لا أرتضيها له ، وقد خالفه فيها أعيان أصحابه ، والناقلة لمذهبه ، ولكن لكل أريب هفوة ، ولكل جواد كبوة ، والكلام إذا كثر لا يخلو من الخطأ ، والقول إذا تتابع لا يعرى من تناقض ، — والله المعين على أمر الدنيا والدين . .

وبعد :

فقد اتهم أبو حيان بالزندقة زورا ، ورأينا أن تعبده وتصوفه وأدعيته وما بقى من مؤلفاته كفيل بدحض هذه التهمة .

وكذلك اتهم بالوضع والاختلاق ، ورأينا أنه أمين فيما نقل ، وفيما روى ، وفيما وصف ، وإذاً فهو برىء من هذه التهمة أيضاً .

ولم يكن الغرض من الحملات على الرجل إلا الغض من شأنه ، والتنفير من قراءة أدبه ، والإعجاب به ، لأسباب شتى بسطناها .

لكن الحقيقة تأبى إلا أن تشرق ، فتمحو ظلمات التحامل والتجنى والإغفال ، فإذا أبو حيان جدير بأن يحتل مكانه فى الصدارة بين كبار الأدباء والعلماء .

الفهرس

موضوعات الجزء الثانى

مؤلفاته ، المطبوع منها والمخطوط والمفقود .

تحليل كل منها :

خصائصه الفكرية والفنية .

موازنة بينه وبين كتاب عصره .

موازنة بينه وبين الجاحظ .

المراجع

سنذكرها فى آخر الجزء الثانى إن شاء الله



مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية

بإشراف الأستاذ عمر الدسوقى

رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم
جامعة القـــاهرة

صدر منها : (من سلسلة حياة المجتمعات)

١ — قصة الملكية فى العالم : تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى والدكتور حسن سعفان

٢ — الرومانتيكية : من سلسلة المذاهب الأدبية الكبرى
تأليف الدكتور محمد غنيمى هلال

٣ — زرادشت : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر

٤ — كونفشيوس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفان

٥ — الفكاهة فى الأدب العربى حـ ١ و٢ : من الأدب والنقـــد
تأليف الدكتور أحمد الحوفى

٦ — قصة الزواج والعزوبة فى العالم : من سلسلة حياة المجتمعات
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

٧ — تاريخ الفكر الاقتصادى : من سلسلة الاقتصاد السياسى
تأليف الدكتور لبيب شقير

٨ — بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الدكتور صوفى حسين أبو طالب

٩ — ابن خلدون ، منشىء علم الاجتماع : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

١٠ — السرقات الأدبية : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور بدوى طبانه

١١ — الحرية العامة بين المذهب الفردى والمذهب الاشتراكى : من سلسلة الاقتصاد والسياسة : تأليف الدكتور طعيمة الجرف

١٢ — مونتسكيو : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفان

١٣ — أبو حيان التوحيدى : فى جزأين . من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب تأليف الدكتور أحمد الحوفى

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية بإشراف الأستاذ عمر الدسوقي رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم

الكتاب السادس من هذه السلسلة :

الجزء الثاني « أبو حيان التوحيدي »

بقلم

الدكتور أحمد محمد الحوفي

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة

مطبعة الرسالة
شارع حمودة المنشاوى ٣ عابدين



